الكاتب
للثقافة الانسانية والتقدم

AL KATEB
FOR HUMAN CULTURE AND PROGRESS
١٣٧
تشرين الأول ١٩٩١
- السنة الثانية عشرة -
No. 137 October 1991

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب
للثقافة الانسانية والتقدم

AL KATEB
FOR HUMAN CULTURE
AND PROGRESS

العدد (١٣٧) تشرين اول ١٩٩١ - السنة الثانية عشرة - No. (137) October 1991

Editor
As'ad Al - As'ad
P.O.BOX 20489 Jerusalem
TEL: (02) 959931

رئيس التحرير المسؤول
اسعد الاسعد

اول الكلام

لذا صدقت المصادر التي اعلنت عن بدود وفحوى مذكرة «التفاهم» الامريكية الفلسطينية، فانها تستحق الدراسة.

فهي تحمل ما يشير الى تقدم في الموقف الامريكي، يضاف الى ذلك، ما صرح به الملك الحسن الثاني، عقب لقائه الرئيس الامريكي جورج بوش في واشنطن قبيل انهاء جلسات المجلس الوطني، والتي يؤكد فيها، ان التسوية تستند الى قراري الامم المتحدة ٢٤٢، ٣٣٨.

ورغم ان بنود المذكرة وكذلك تطمينات بوش للملك المغربي لا يعول عليها، فانها تبقى ضمن فهمنا لها، مجرد تصريحات تحتاج الى تأكيد رسمي، والا فان اطلاقها في ذلك الوقت بالذات خوف ان تقصر على انها اشارة الى اعضاء المجلس الوطني، لحملهم على اتخاذ موقف يتفق والرأي القائل بالمشاركة في المؤتمر.

المحرر

هذا العدد

صدر العدد الاول في تشرين الثاني ١٩٧٩

- المجلس الوطني والخيار الصعب. أسعد الأسعد..... ٢
- محاولة للمشاركة في فهم طبيعة الاصلاح الديمقراطي في م.ت.ف. عدنان الطويل..... ٥
- التحرك الاميركي الراهن! لماذا؟!. د. اسعد عبد الرحمن..... ٩
- قائمة بأسماء شهداء الشهر السادس والاربعين للانتفاضة. الكاتب..... ١٤
- أية ديمقراطية تقصدون؟! صافي صافي..... ١٥
- مناقشة لبعض الافكار التي وردت في الحوار مع المفكر كورنيليوس كاستورياديس. يسري السيفي..... ٢١
- قطاع غزة والتنمية الاقتصادية. صلاح عبد الشافي..... ٢٣
- أضواء على مشروع التثقيف الزراعي في مركز علوم صحة البيئة/جامعة بيرزيت. نادي فراج..... ٢٨
- جدلية الحياة والموت في قصيدة هنا اول البر. د. وائل ابو عرفة..... ٣٣
- معذرة ودقيقة من فضلكم!!. فضال طه..... ٣٦
- الحضارات الفنية عبر العصور (٤) فن الشرق الاوسط والاقصى. فاطمة المحبب..... ٣٩
- المسرح في قطاع غزة. كامل الباشا..... ٤٥
- السينما الفلسطينية (١). عدنان مدانات..... ٤٧
- شعر. يوسف شحادة، ماجد أبو غوش، محمد آل رضوان، د. عبد العزيز المقالح..... ٣٢
- بعض هموم أدبية. وسيم الكردي..... ٦٤

لوحة الغلاف للفنان: يعقوب اسماعيل

الاشتراك السنوي بالدولار

	محليا	اوروبا	بلدان اخرى
للافراد	٣٠	٧٥	١٠٠
للمؤسسات	٥٠	١٥٠	٢٠٠

القدس - هاتف: ٠٢/٩٥٩٩٣١ - ص.ب: ٢٠٤٨٩

Digitized by Birzeit University Library

المجلس الوطني
والخيار الصعب

مثلما كان متوقعا، فقد ترك المجلس الوطني الباب مفتوحا أمام القيادة الفلسطينية، للمشاركة في المؤتمر الذي تواصل الادارة الاميركية الاعداد لانعقاده، مكلفا بذلك اللجنة التنفيذية، بالتحرك وفق الثوابت الفلسطينية العامة، التي اتفق عليها في المؤتمر التاسع عشر للمجلس الوطني الذي انعقد في الجزائر في ربيع عام ١٩٨٨.

ولعل في صيغة وحيثيات القرار، ما يشير بوضوح الى تمسك الشعب الفلسطيني وقيادته السياسية منظمة التحرير الفلسطينية، بالثوابت وقرارات المجلس الوطني المنعاقبة، ورغم المعارضة التي أبداها عدد من أعضاء المجلس وكذلك التنظيمات، الا أن اتخاذ هذه القرارات بالأغلبية، وفق الاسس الديمقراطية المتبعة في المجلس. فان هذه المعارضة، تضع أمام رئيس اللجنة التنفيذية ياسر عرفات وكذلك أعضاء اللجنة التنفيذية الجديدة، مهام ومسؤوليات كبيرة، تحتم عليهم الالتزام بها، وتحملها، في مرحلة قد تكون من أدق مراحل القضية الوطنية للشعب الفلسطيني، وعليها وحدها، تقع مسؤولية تحمل عبء هذه المرحلة، والسير في دروب وعرة، تتطلب كثيرا من الحنكة السياسية، ومعرفة أكثر لاسس التعامل معها. اذ ان على ذلك يتوقف الشيء الكثير، وبضمنه معرفة الاطراف الاخرى وخصوصا الطرف الاسرائيلي، ان لا مناص من التعامل مع الشعب الفلسطيني وقيادته السياسية منظمة التحرير الفلسطينية، بصفته يمثل لب الصراع، ومن دونه لا يمكن لاي مؤتمر ان ينعقد، وانا كانت بعض المؤشرات، تدل على أن أصواتا مهمة، في هذه الاطراف بدأت تدرك ذلك، فان وتيرة هذه الاصوات، لا

Digitized by Birzeit University Library

تزل بحاجة الى دعم وتوضيح، ومواجهة الحقائق الثابتة، المتعلقة بطبيعة الصراع، وكيفية حله، ومع من.

من جانب آخر، فان طبيعة المرحلة، التي فرضتها المتغيرات الدراماتيكية في العالم، اثر سقوط الشيوعية، في موطنها الاساسي، وانهيار الدولة العظمى وتفكك أوصالها، ومن ثم انحسار دورها في صنع القرارات الدولية، مما فتح الطريق أمام صعود الولايات المتحدة، لتصبح سيدة العالم بلا منازع، والذي يطلق عليه العالم الجديد، «عالم امريكا»، يدفعنا الى التوقف عنده، فهو بحاجة الى دراسة وتمعن فباختصار شديد، تستطيع الادارة الامريكية وحلفاؤها، فرض أي شكل من أشكال التسوية على العرب والفلسطينيين، غير ان هذا الشكل لا يمكن ان يدوم طويلا، اذا لم يتم بموافقة الفلسطينيين اولا والعرب ثانيا، وحتى يحظى شكل التسوية المقترح هذا بالقبول فان على الولايات المتحدة وشركائها، مراعاة أسس واضحة في تعاملها مع هذه القضية، وأهم هذه الاسس:

- حق الشعب العربي الفلسطيني في اختيار ممثليه.
- قرارات الامم المتحدة، هي الاساس الذي يجب اعتماده في أي شكل للتسوية وعلى رأسها ٢٤٢، ٣٣٨.
- القدس، هي جزء من الاراضي التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧، وهي بالتالي أرض محتلة، ينطبق عليها ما ينطبق على بقية الاراضي في الضفة والقطاع والجولان، وجنوب لبنان.
- للشعب الفلسطيني الحق في تقرير مصيره، وفق الاسس الديمقراطية المتعارف عليها، ومن خلال قيادته السياسية منظمة التحرير الفلسطينية.
- شكل العلاقة، بين اسرائيل والاراضي المحتلة التي يجب ان تنسحب منها اسرائيل، يتحدد عبر وفدي اسرائيل وفلسطين وكذلك شكل العلاقة بين فلسطين والاردن.

ولا شك في أن هناك تفاصيل أوفى، تحتاج الى بحث ونقاش، يجب أن تترك للوفدين الفلسطيني والاسرائيلي لحل القضايا المتعددة، وبضمنها المياه وأمن الطرفين، وشكل العلاقات الاقتصادية...الخ، اذا كان المقصود حل الصراع على أسس ثابتة ودائمة.

وبرأيي ان المجلس الوطني الفلسطيني، والقيادة الفلسطينية، تعاملت مع القضية بروح من المسؤولية عالية، حين أدركت المخاطر المترتبة على الذهاب الى المؤتمر وفق تصور آخر، يضعه الاخرون، بل ان الموقف الفلسطيني، جاء واضحا، ومتمسكا بما اتفق عليه، ويرضي الاطراف جميعها، ويهمش دور المعارضة، بعد أن تأكد الموقف من المؤتمر، والاسس التي يجب البناء عليها في التعامل مع الموضوع، والامر الاخر، فان المعارضين ايضا، الذين تحفظوا او عارضوا الموقف المذكور، يستحقون التقدير والاحترام، جراء قرارهم بعدم تصعيد الخلاف مع الاغلبية، وهو أمر يسترعي الانتباه، في مسيرة تعزيز الديمقراطية في حياتنا السياسية، دون حاجة الى الانشقاق او المقاطعة السلبية.

من جانب آخر، وبرأيي ان التساؤل يبدو مشروعا، حين يتعلق الامر بالاشارة الى أن الاسرائيليين وافقوا على حضور المؤتمر المقترح، وفق شروطهم وتصوراتهم المعروفة، والمتمثلة في عدم التفاوض مع منظمة التحرير، عدم طرح موضوع القدس، وعدم التخلي عن المستوطنات، وعدم القبول بمبدأ الارض مقابل السلام، والذي تنص عليه القرارات الدولية وبضمنها ٢٤٢، ٣٣٨.

فاسرائيل من جانبها، تسعى الى فرض الامر الواقع وكسب الوقت لفرض واقع يحول دون تغييره لغير ما تسعى اليه، ولتحقيق ذلك، فهي في عجلة من امرها، تقوم بمحو ما يسمى بالخط الاخضر، الفاصل بين اسرائيل وما احتلته من أراض في العام ١٩٦٧، ببناء وتوسيع المستوطنات عبر هذا الخط، ليصل عدد المستوطنين في الاراضي المحتلة، الى ٢٠٠ - ٣٠٠ ألف مستوطن، والمسؤولون الاسرائيليون لا يخفون مواقفهم الداعية الى عدم التنازل عن الارض، وعدم الالتزام بقرارات الامم المتحدة...الخ، ومع ذلك فهم يوافقون على الذهاب الى المؤتمر.

فان كان الاسرائيليون وافقوا على حضور المؤتمر بشروطهم، فماذا يمنعنا نحن أيضا من حضور المؤتمر بشروطنا نحن، ووفق قرارات ومواقف يتفق عليها غالبية الشعب الفلسطيني، فنكون بذلك قطعنا الطريق على ادعاءات عرقلة عقد المؤتمر وفي الوقت نفسه، حافظنا على قدر معقول من وحدتنا الوطنية، والتي كاد النقاش حول المؤتمر أن يعصف بها.

أما فيما يتعلق بالتنظيمات غير المنضوية في اللجنة التنفيذية الحالية، وكذلك المستقلون وهم غالبية شعبنا، فان على المجلس الوطني، ان يبقي على القضية هذه مفتوحة، ضمن قضايا عديدة، يجب ان يعاد النظر فيها، وبضمنها اعادة النظر في دور الارض المحتلة، واعادة صياغة منظمة التحرير ومؤسساتها على أسس جديدة، تأخذ بعين الاعتبار المتغيرات التي طرأت على الساحة الفلسطينية والعربية والدولية وتكريس النهج الديمقراطي الحقيقي، القائم على احترام الرأي والرأي الاخر، ودون أن يفقد اصحاب الرأي الاخر حقوقهم المختلفة والتي يجب ان تتساوى مع حقوق الاخرين.

Digitized by Birzeit University Library

الخيار الصعب

لم يكن من السهل على القيادة الفلسطينية، اتخاذ موقف آخر، غير الذي اتخذته في الدورة العشرين للمجلس الوطني الفلسطيني مؤخرا، ذلك أن الظروف الدولية والعربية والفلسطينية، استدعت موقفا سياسيا، واضحا، ومبدئيا، حيال المساعي الجارية لعقد تسوية لقضايا الشرق الاوسط وقضية فلسطين بشكل خاص، فعدم المشاركة مخاطرة، والمشاركة ايضا مخاطرة، من هنا، كان القرار بالدخول والمشاركة في المؤتمر، وفق الشروط الفلسطينية، وضمن الثوابت الاساسية التي يتفق عليها غالبية الشعب الفلسطيني، وكذلك وفق الشرعية الدولية وقراراتها، قرارا مقبولا لقطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني، في هذه المرحلة، الا ان الامر الاكثر خطورة ينبع من عدم الالتزام بهذه الثوابت والمواقف، او بمعنى آخر، عدم الرضوخ لابتزازات الاطراف الاخرى، فيما يتعلق بالتمثيل الفلسطيني وكذلك القدس، على أن يفضي المؤتمر في نهاية المطاف، الى انسحاب اسرائيل من الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ وبضمنها القدس العربية المحتلة.

اما العلاقة مع الاردن، فهي بلا شك علاقة متميزة، ويجب ان تكون كذلك، الا ان تحديد هذه العلاقة وشكلها، يجب أن يعقب تحقيق الشق الاول، المتعلق بتكريس الهوية الفلسطينية، على التراب الفلسطيني، ومن ثم يصار الى الاتفاق على شكل العلاقة مع الاردن.

من جانب آخر، فان المخاطر تكمن أيضا، في تراكم الاحساس الفلسطيني والعربي بعدم الثقة بالادارة الاميركية، وهي كما قلنا دائما، طرف غير محايد أبدا، فيما يتعلق بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، فالولايات المتحدة، صاحبة التاريخ الاسود، في شتى بقاع الارض، بدءا بفيتنام، ومرورا بغرينادا، وبنما، وانتهاء بالعراق، وصمتها المطبق، على المجازر الوحشية والرهيبة التي يرتكبها الكويتيون ضد أبناء الشعب الفلسطيني والجاليات العربية الاخرى هناك، يجعلنا نتمسك أكثر فأكثر، بعدم ثقتنا بالادارة الاميركية، وكيف يمكن أن نثق بالولايات المتحدة، وهي التي تتشدق بالشرعية الدولية، وتقترف ما اقترفته ضد الشعب العراقي، وشعوب كثيرة في العالم، باسم حقوق الانسان، والدفاع عن الحرية، وترفض حتى الان، تطبيق نفس المعايير بحق القضية الفلسطينية، من هنا، نحن مع قرارات المجلس الوطني والقيادة الفلسطينية، لكننا ننبه الى المحاذير التي تكمن في الانسياق وراء الادارة الاميركية، مع تمسكنا بالثوابت الاساسية، التي تتمتع بموافقة الاغلبية، واقدر عاليا بقاء المعارضين في مواقعهم، وهو امر يجب ان يشكل كابحا لاي تنازل او انحراف عن المبادىء التي اتفق عليها أساسا للتحرك في المرحلة القادمة وعليه، فان التقدم نحو عملية السلام، يجب ان يرافقه الحذر الشديد، من مطبات ومنزلقات قد يسعى اليها الطرف الاخر.

فان كانت لدينا الاسباب لمقاطعة المؤتمر، فان لدينا الاسباب أيضا التي قد تدفعنا الى المشاركة، فرغم عدم الثقة بمصداقية الولايات المتحدة، وعدم الثقة بتوجه الحكومة الاسرائيلية الى المؤتمر، بروح جدية تستند الى الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني، وحتمية انهاء الاحتلال الا أن معارضتنا للمؤتمر، يجب ان لا تشكل سببا في عدم انعقاده، وفشله، ورغم عدم ثقتنا بأن شيئا أساسيا لن يتحقق في المؤتمر الا أن مشاركتنا تقطع الطريق على تحميلنا مسؤولية فشله، ويبقى السؤال: كيف يمكن ان نواصل التمسك بمواقفنا الوطنية المتفق عليها، عبر دهاليز أطراف تسعى الى مسخ قضيتنا، قدر استطاعتها او بمعنى اخر، الى اي حد يمكن الالتزام بما اتفق عليه في الجزائر، ومقاومة السقوط الهادفة الى التنازل عنه أكثر، اسئلة مشروعة، والاجابة عليها سوف تحملها الايام القليلة القادمة.

*****

Digitized by Birzeit University Library

محاولة للمشاركة في فهم طبيعة الاصلاح الديمقراطي في منظمة التحرير الفلسطينية.

عدنان الطويل

لا يمكن لاحد الانكار، بأن الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة قد حققت انجازا تاريخيا كبيرا في تأسيسها لمنظمة التحرير الفلسطينية ككيان وهوية وطنية للشعب الفلسطيني، وقد جاء هذا الانجاز الكبير تجاوبا مع ضرورة موضوعية حتمتها طبيعة النضال الوطني الفلسطيني في تلك المرحلة، والذي يحرص الشعب الفلسطيني هذه الايام بكل فئاته وطبقاته الاجتماعية وقواه الوطنية على حماية هذا الانجاز وتطويره واستمراره بما يتلائم مع طبيعة وحاجة المرحلة التي يعيشها النضال الوطني الفلسطيني، من اجل تحقيق اهداف هذا الشعب في الاستقلال الوطني والعودة.

لقد حكم بناء هذه المنظمة انذاك العديد من العوامل الذاتية والموضوعية، والتي فرضت اشكال محددة من البنى التنظيمية والمؤسساتية، وحتى فرضت انماطا من التفكير واسلوب من العمل لايزال يحكم نظامها السياسي وبنيتها التنظيمية منذ تأسيسها، ولم يعد مفهوم استمرارها حتى الان، مما يتطلب الوقوف عندها، وتحليل مسيرة العمل الوطني الفلسطيني تحليلا نقديا، لتكون حركتها متجاوبة مع متطلبات المرحلة الجديدة.

ولما كان منطق الحياة الجديد لا يزكي استمرار مثل هذه الاشكال الى مالا نهاية، فانه يفرض حالة من التجديد تتلائم مع الظروف التي تمر بها المنطقة والعالم، فاننا نعتقد بأن منظمة التحرير الفلسطينية تعاني هذه الايام ازمة سياسية، تنظيمية، اخلاقية، وحتى اقتصادية، تختلف في جوهرها وطابعها عن بقية الازمات التي مرت بها منظمة التحرير الفلسطينية سابقا، وسيكون نتيجة هذه الازمة الدمار والهلاك لهذا الكيان ولهذه الهوية، اذا ما اصر البعض على التعامي وعدم رؤية الحاجة الملحة لهذا التغيير، والذي سيؤدي الى اغتراب المنظمة عن الشعب الفلسطيني، وستتسع الهوة التي تبرز بشكل واضح هذه الايام بينها وبين الجماهير الفلسطينية، وستتلاشى الثقة بها، ويصبح من الصعب جسرها لاحقا، مما يفتح المجال واسعا امام بروز البدائل عنها، وبالتالي سيفقدها الحق في تمثيل الشعب الفلسطيني، وخاصة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار المحاولات المحمومة على المستوى العربي والعالمي لعزلها وايجاد البدائل عنها نتيجة موقفها السياسي اتجاه ازمة الخليج.

ان الظروف الحالية تفرض علينا رؤية الواقع كما هو، والتأقلم معه بما يضمن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وان نعرف بأن منظمة التحرير الفلسطينية في نهاية الستينات باجهزتها ومؤسساتها اصبحت غير قادرة بالحالة التي عليها الان قيادة نضال الشعب الفلسطيني في نهاية القرن العشرين، حيث جاءت الانتفاضة الشعبية في الضفة الغربية وقطاع غزة لتثبيت صحة هذا الاستنتاج ولتؤكد عمق الازمة التي تعانيها منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها واجهزتها في مجاراتها لطبيعة الانتفاضة الشعبية التي تختلف في جوهرها الديمقراطي الشعبي عن جوهر هذه المؤسسات، والتي تحكمها انماط من العمل والتفكير البيروقراطي العاجزة عن خدمة الانتفاضة وتطويرها ودعم مؤسساتها، نتيجة ابتعادها شيئا فشيئا عن الجماهير ومطالبها، واصبحت غريبة عنهم في ممارساتها اللاديمقراطية معهم، بل نجحت الى حد ما في جر الانتفاضة ومؤسساتها الى هذا النمط من التعامل مع الجماهير، والذي عكس نفسه بشكل سلبي في مسيرة الانتفاضة وتطورها، حيث اصابها

Digitized by Birzeit University Library

نوع من الخفوت في وتيرتها والمشاركة الجماهيرية الضعيفة فيها، وخاصة في الفترة ما قبل حرب الخليج.

هذا الواقع يفرض القيام بتغيير حقيقي في بنية المنظمة التنظيمي ونظامها السياسي، والقضاء كليا على منهج العمل والتفكير البيروقراطي، ليحل مكانه منطق جديد في التعامل مع الجماهير الشعبية، واحترام عقولها ومبادراتها، ليتماشى مع المنطق الديمقراطي الجديد الذي يفرض نفسه على المستوى العالمي، من اجل الاعتماد على الذات في الاساس لمواجهة الهجمة الشرسة التي تتعرض لها القضية الوطنية الفلسطينية هذه الايام، ومن اجل انجاز مهام الثورة الوطنية التحررية في العودة وتقرير المصير واقامة الدولة الوطنية الديمقراطية المستقلة، وهذا يتطلب اعادة صياغة البرنامج السياسي الفلسطيني على اساس قرارات الشرعية الدولية، واجراء اصلاحات ديمقراطية حقيقية تشكل السند الاساسي والضروري للانتفاضة الشعبية واستمرارها وتطورها.

ولهذا فان الحديث عن الاصلاح الديمقراطي في منظمة التحرير الفلسطينية مسألة معقدة وشائكة للغاية، تتطلب الحذر والحرص في تناول الموضوع لاهميته الفائقة في هذه المرحلة الدقيقة من نضال الشعب الفلسطيني، ولذا لا بد من طرح جملة من الاسئلة المتعلقة بالموضوع والتي ستسهل علينا هذه المهمة الصعبة، وتعطينا الجرأة في تناولها.

• هل من الممكن تجاوز الازمة التي تعانيها منظمة التحرير الفلسطينية دون اجراء اصلاحات ديمقراطية حقيقية في النظام السياسي والبنية التنظيمية وتغييرات كادرية في قيادتها، كما كان يحصل سابقا عندما تقع في ازمة؟

• هل الاصلاح الديمقراطي في منظمة التحرير الفلسطينية، مسألة تهم فقط الفصائل والتنظيمات الفلسطينية المكونة لها، ام يتعداها الى كل الشعب الفلسطيني؟

• هل من الممكن اجراء اصلاحات ديمقراطية حقيقية في منظمة التحرير الفلسطينية، دون البدء في اجراء اصلاحات وتغييرات ديمقراطية عميقة في المنظمات والاحزاب المكونة لها؟

• هل ما طرحته فصائل العمل الوطني الفلسطيني وبالاخص الفصائل «الديمقراطية» الفلسطينية من وجهات نظر حول الاصلاح الديمقراطي هو المطلوب من قبل جماهير الشعب الفلسطيني؟

هذه الازمة لا يمكن تجاوزها بالاسلوب القديم

في اعتقادي بأن منظمة التحرير الفلسطينية منذ تأسيسها حتى الان مرت بالعديد من الازمات والمنعطفات التاريخية كانت تهدد وحدتها الوطنية. وقد كان يتم تجاوزها من خلال بعض الاجراءات الادارية وحتى العسكرية في بعض الاحيان ما تلبث ان تتبدد هذه الاجراءات امام ازمة جديدة اكثر حدة. لكن الازمة التي عاشتها منظمة التحرير الفلسطينية بعد الخروج من بيروت والتي مازالت جذورها تمتد عميقا في طابع وملامح الازمة الحالية التي تعيشها المنظمة، حيث حلت بشكل غير مبدأي، انطوت على بعض التنازلات التنظيمية الجوهرية لهذا التنظيم او ذاك، وقد اكد هذا الحل على الصيغة الائتلافية القائمة في هيئات المنظمة ومؤسساتها، دون الاتفاق على سياسة كادرية للمنظمة تقوم على اساس التخصص من خلال وضع الرجل المناسب في المكان المناسب بعيدا عن الوساطات والمحسوبيات والاستزلام. ان النتيجة الحقيقية للمساومة السياسية والتنظيمية التي توصلت اليها الفصائل الفلسطينية في براغ، هي ما تعيشه المنظمة هذه الايام. ولهذا فان اي مخرج من الازمة الحالية لا يمكن ان يكون على الطريقة القديمة لسبب بسيط وجوهري هو ان هذه الازمة تختلف في طبيعتها وجوهرها عن بقية الازمات والمنعطفات السابقة، وهي تأتي في مرحلة انتهاء سياسة المواجهة والحرب الباردة وبداية البحث عن نظام عالمي جديد، على الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية ان يحددان موقعهما فيه دون تأخير. ولهذا يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار طبيعة الظروف السياسية التي تمر بها القضية الفلسطينية، وان يتم تغيير النظام السياسي القديم والبنية التنظيمية القائمة عليها منظمة التحرير، والتي تعكس غياب العلاقات الديمقراطية بداخلها، وبداخل تنظيماتها واحزابها السياسية وعلاقاتها مع الجماهير الفلسطينية، بنظام سياسي وبنية تنظيمية جديدين، يفتحان المجال واسعا امام مشاركة جماهيرية في ادارة شؤون المنطقة، ومشاركتها بشكل فعال في صياغة القرارات التي تمس مصالح ومصير الشعب الفلسطيني، وفتح المجال امامه في الرقابة الشعبية على مؤسسات المنظمة السياسية والجماهيرية والعسكرية والمالية، ويتلاءمان مع المرحلة السياسية الجديدة التي يمر بها العالم، وخاصة اننا نؤكد دائما على ضرورة حل القضية الفلسطينية على اساس مقررات الشرعية الدولية.

على عاتق من تقع عملية اجراء اصلاحات ديمقراطية في منظمة التحرير؟

ان العديد من فصائل العمل الوطني الفلسطيني قد رفع شعار الاصلاح الديمقراطي قبل الخروج من بيروت

Digitized by Birzeit University Library

بسنوات، واصبح ضرورة تطبيق هذا الشعار اكثر الحاحا بعد الخروج منها. لكن هذه الرغبة في الاصلاح كانت دائما تصطدم بشعار والوحدة الوطنية» الذي كان يوضع عن قصد واضح بتعارض مع الرغبة في اجراء اصلاحات ديمقراطية في منظمة التحرير، وكأن هذين الشعارين من الناحية العملية «متعارضان»، اذا طبق احدهما فانه سيكون على حساب الشعار الاخر. وهنا لا يخطر في البال بانه لا يمكن أن يكون هناك وحدة وطنية حقيقية اذا لم تكن العلاقة والانظمة والبنى والاساليب والوسائل التي تحكم هذه الوحدة في طبيعتها ديمقراطية. ولهذا كانت تؤول كل محاولات تطبيق هذا الشعار الى الفشل الذريع حتى الان. والاكثر من ذلك كله كانت الرغبة في الاصلاح الديمقراطي تنتهي وتتلاشى عند تلبية بعض المطالب التنظيمية الضيقة لهذا او ذاك، وكأن الاصلاح الديمقراطي يتوقف فقط على نسبة تمثيل هذا التنظيم او ذاك في هذه المؤسسة او السفارة او تلك.

وتصبح المشكلة اكثر وضوحا اذا ما تمعن الانسان بحال القيادات الفلسطينية التي تقود العمل الوطني الفلسطيني، حيث «يُعوّل» عليها اجراء تحولات ديمقراطية عميقة في بنية منظمة التحرير الفلسطينية، في حين لا تبذل اي جهد يذكر للقيام بهذه العملية في داخل تنظيماتها السياسية، باعتبارها تشكل هذه المنظمة وتقودها. فعلى قدم المساواة وبخط مستقيم مع التجديد في منظمة التحرير الفلسطينية، يجب على التنظيمات الفلسطينية ان تخرج من حالة الانتظار الى حالة المبادرة في اجراء هذه التغييرات، وتعميق الديمقراطية الحقيقية في صفوفها الداخلية، ليكون لها حق المطالبة بالاصلاح في منظمة التحرير الفلسطينية. لكن للاسف فان هذه العملية الى الان لم تمس حياة اي تنظيم، والاكثر من ذلك فان العديد من الفصائل تتحدث عن ضرورة الاصلاح في منظمة التحرير وكأن المسألة غير متعلقة بها. حتى الاغلبية الساحقة من الفصائل الفلسطينية لم تعقد مؤتمراتها منذ اكثر من عشر سنوات، بل ان احدى الفصائل قد وزعت وثائق مؤتمرها قبل عامين، واصبحت هذه الوثائق قديمة لا تتماشى مع طبيعة التغيرات السريعة والعاصفة التي تجري على القضية الفلسطينية وفي العالم، وليس هناك على المدى المنظور اي اشارة الى قرب انعقاد مؤتمره. فالى متى ستستمر سياسة الانتظار والجري في ذيل الاحداث السياسية، هل قريبا ستتمتع هذه الاحزاب والتنظيمات بالجرأة الكافية لاخراجها من هذه الحالة الى حالة المبادرة والطليعية. وفي هذا الاطار يتبادر الى الذهن السؤال التالي، هل حقيقة نحن بحاجة فقط لدمقرطة النظام السياسي وتطوير بنية منظمة التحرير الفلسطينية، ام ان هناك شريحة بيروقراطية انتجها النظام السياسي القائم والتي حكمته بنية تنظيمية انتجتها ظروف ما قبل اكثر من عشرين عاما، تقف بكل امكاناتها المالية والاعلامية والعسكرية وحتى الامنية عائقا امام الوصول لهذا الهدف، هل من الممكن اجراء هذه التحولات في ظل وجود مثل هذه الشريحة؟. قطعا لا يمكن، بالرغم من ان هذا الوضع مريح لقيادة التنظيمات ومنظمة التحرير الفلسطينية. ان ضمان نجاح عملية الاصلاح الديمقراطي يتطلب العمل على ابعاد ممثلي هذه الشريحة بطريقة ديمقراطية وحضارية من خلال الاطر التنظيمية، وعن طريق عقد مؤتمراتها، وخاصة اولئك الذين ارتبطت اسماؤهم في اذهان المجتمع الدولي بالعمل الارهابي. لقد آن الاوان لابراز قضيتنا الوطنية من خلال وجوه جديدة لها سمعتها الوطنية على الصعيد الفلسطيني والعربي والعالمي.

قد يدعي البعض وبالاخص من يمسهم هذا الاصلاح، بأن هذا الفهم يتلاقى مع مسعى الصهيونية والامبريالية الامريكية والرجعية العربية في ازاحة القيادة الحالية للمنظمة وعدم التعاطي معها. هذا ليس صحيحا. قد يرى الانسان تلاقي من حيث الشكل في هذين الطرحين، لكن من حيث الجوهر يختلفان جذريا. فان هذه الاطراف تحاول من خلال ذلك ليس القضاء على قيادة منظمة التحرير، بل القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني. ولهذا كان دائما يتم طرح قيادة فلسطينية ليس لها علاقة من قريب او بعيد بمنظمة التحرير الفلسطينية، والبحث دائما عن بدائل لها. في حين طرحنا يطالب بتقوية وتصليب المنظمة وتطوير بنيتها وايجاد نظام سياسي جديد يتلائم مع طبيعة المرحلة التي يمر بها نضال الشعب الفلسطيني. واخراجها من ازمتها كشرط اساسي من شروط تطوير علاقاتها بالجماهير الشعبية على اسس ديمقراطية لمواجهة كل محاولات ايجاد البدائل عنها باعتبارها تمثل الكيان والهوية للشعب الفلسطيني.

ان الاصلاح الديمقراطي يجب ان يتحول الى مطلب جماهيري للشعب الفلسطيني وقواه الديمقراطية، واخراج هذا المطلب من حالة رفع الشعار الفضفاض الى حالة الملموسية في تنفيذ هذا الشعار على ارض الواقع. وهنا لا يتأتى الا من خلال تشكيل الحزب الموحد للديمقراطيين الفلسطينيين عبر توحيد كل التيارات الديمقراطية في التنظيمات الفلسطينية الحالية، ليشكل قوة ضغط هائلة في الساحة الفلسطينية يأخذ على عاتقه وضع برنامج للاصلاحات الديمقراطية تعكس الرغبة الحقيقية لجماهير الشعب الفلسطيني في تجاوز المنظمة لازمتها، وقيادة النضال

Digitized by Birzeit University Library

الوطني للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة الصعبة من تاريخه.

المطلوب الان

في اعتقادي من اجل اجراء اصلاح ديمقراطي يكتب له النجاح، ويساعد المنظمة في تجديد نفسها بما يتلائم مع طبيعة المرحلة، ويوضع بداية حقيقية لاخراجها من ازمتها السياسية والتنظيمية والاخلاقية والاقتصادية، فانه يتطلب القيام بجملة من الاجراءات الديمقراطية الملحة التي تضع البداية الصحيحة لاقرار نظام سياسي وبناء تنظيمي جديد لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهذه الاجراءات تتمثل بالعمل على اشراك جماهير الشعب الفلسطيني في بلورة القضايا السياسية المصيرية من خلال انتخابات مندوبيه الى المجلس الوطني (البرلمان) الفلسطيني، والذي بالضرورة يجب ان يكون له صلاحيات برلمان حقيقي، يتم دعوته للانعقاد بدورات متعددة خلال السنة، والاقلاع عن عقده بالطريقة الاحتفالية القائمة عليه الان، حيث تنتهي صلاحياته بانتهاء اعماله. وهذا يستدعي تخفيض عدده الحالي، الى النصف على الاقل، وهذا الشيء ينسحب على المجلس المركزي الفلسطيني. اما حول المؤسسات والاجهزة التابعة للمنظمة فيتطلب اجراء تقليصات في كادرها وميزانيتها باعتبارها تشكل عبأ ماليا ليس قليلا، والمثل الفاضح على ذلك تضخم جهاز السفارات وممثليات منظمة التحرير في الخارج، والذي يتطلب تخفيض عدد العاملين في كل سفارة الى خمسة اشخاص على الاكثر، بل والقيام باغلاق العديد منها خاصة غير الفاعلة منها.

ومن هذا المنظور، فان اهمية رأي الجماهير الشعبية الفلسطينية في سياسة ونشاط الهيئات القيادية وجماهيريتها يتطلب تشكيل مركز لاستطلاع الرأي العام الفلسطيني، من خلاله يتم تحديد علاقة المنظمة وقيادتها اليومية بالجماهير الشعبية، وابعادها عن الادعاء بتمثيل الجماهير الشعبية دون معرفة رأيها المسبق. اما فيما يتعلق بوضع الداخل فانه يتطلب وضع آلية ديمقراطية جديدة تحكم علاقة الداخل بالخارج، وذلك باعطاء الداخل امكانية رسم تكتيكه اليومي في اطار السياسة العامة لمنظمة التحرير التي سيشارك الداخل في رسمها بفعالية، ونبذ الاسلوب الاوامري البيروقراطي الذي يحكم علاقتها الان، واعادة النظر في صيغة الاربع تنظيمات في القيادة الوطنية الموحدة، واشراك ممثلين عن المؤسسات الوطنية واللجان الشعبية والجمعيات الخيرية والنقابات في هذه القيادة، وان يتم اعتمادها كممثل وحيد لمنظمة التحرير في الداخل وكقناة وحيدة لتوزيع الاموال، والعمل على دمقرطة هذه القيادة في علاقاتها الداخلية ومع الجماهير والابتعاد عن عسكرة الانتفاضة وتجييشها، ونبذ كل اساليب الزجر والتهديد والتخويف واستخدام القوة.

صوفيا
١٩٩١/٨/٣٠

أسف واعتذار

نقدم اسفنا واعتذارنا الى الاستاذ احمد خالد عكاشة لعدم تمكننا من نشر «المرحلة الثالثة» من «قراءات في تاريخ فلسطين الاقتصادي» وهي «مرحلة الانتداب البريطاني» وذلك لأسباب خارجة عن ارادتنا.

اعلان

تعلن ادارة مجلة الكاتب ان تغيرا طرأ على رقم هاتفها واصبح الرقم الجديد ٩٥٩٩٣١ - ٠٢ بدلا من ٨٥٦٩٣١ - ٠٢

Digitized by Birzeit University Library

التحرك الامريكي الراهن: لماذا؟!

د. اسعد عبد الرحمن

بعث الينا د. اسعد عبد الرحمن ثلاث مقالات حول المساعي الاميركية الراهنة، وقد ارتأينا ان ننشرها كاملة، تحت عنوان «التحرك الاميركي الراهن: لماذا؟!».

المحرر

(١)

سياسة احتواء الازمات ام سياسة حل الصراعات

كثيرون اولئك الذين يتساءلون عن هذا التسارع الدراماتيكي في جهود ومساعي «التسوية السياسية» الشرق اوسطية. ويشير هؤلاء الى «الاختراق الهام» الذي حصل - حسب تعبير الرئيس الامريكي جورج بوش-وما واكب ذلك الاختراق ولحقه من عبارات التفاؤل بخصوص تزايد امكانية التسوية. تلك الامكانية يوحي كثيرون هذه الايام انها اصبحت حقيقة بل وواردة وربما سريعة وبخاصة اثر الاعلان عن وصول «الرد الايجابي السوري» على مقترحات الرئيس الامريكي بعد ان طال انتظار العالم، وخصوصا رأسه الامريكي، لذلك الرد. وكثيرون ايضا هم اولئك الذين اعجبوا ايما اعجاب بالتوقيت السوري الذكي حيث جاء ردهم عشية انعقاد قمة الدول الصناعية او بالاحرى عشية انعقاد قمة «قادة التحالف الدولي» الذي بات يقود العالم ليس اقتصاديا فحسب وانما سياسيا ايضا، وبالذات بعد انتهاء عصر الثنائية القطبية لصالح القطبية الاحادية الامريكية الرأس التي تجمع حولها-بأساليب شتى - باقي قادة ودول التحالف الدولي القائد! وقد ارتفع منسوب التفاؤل العالمي الذي اثاره الرد السوري عندما بادر قادة القمة السباعية زائدا الاتحاد السوفياتي (الذي وقف خارج قاعة القمة بانتظار عقد قمم ثنائية مع هذا الطرف او ذاك من الاطراف المجتمعة لمتابعة قضايا خاصة تهمه) الى اتخاذ موقف داعم للجهود والمساعي الامريكية. وعند هذه اللحظة، وفي خطوة دراماتيكية جديدة، اتخذ الرئيس الامريكي قراره بايفاد وزير خارجيته جيمس بيكر للقيام بجولته الخامسة منذ انتهاء حرب الخليج في نطاق المساعي الامريكية لحل الصراع المثلث الاضلاع الفلسطيني/الاسرائيلي/العربي.وفعلا، ما ان انتهت القمة حتى سارع ناظر الخارجية الامريكية الى زيارة قصد منها ان تبدأ في سوريا، مرورا بعدد من العواصم العربية، وانتهت بالدولة الصهيونية، ومع طي الوزير الامريكي لمراحل زيارته عاصمة اثر عاصمة، ازداد ارتفاع امواج التفاؤل من هذا الفريق او ذاك وبالذات بعد الدفعة التي وفرتها موافقة عدد متزايد من الدول العربية الرئيسية والفرعية على انهاء المقاطعة الاقتصادية لاسرائيل مقابل وقف برنامج الاستيطان الصهيوني.

واذا كان كثيرون يسألون عن التسارع الدراماتيكي في جهود ومساعي التسوية الامريكية، فان عددا اكثر من الناس يسألون عن حقيقة النوايا والدوافع والاسباب الامريكية في انجاز التسوية

Digitized by Birzeit University Library

التاريخية» المتوقعة، وطبعا، لا احد منا يستطيع الزعم بالالمام الدقيق والقاطع بحقيقة النوايا والدوافع والاسباب التي تحرك الولايات المتحدة لانجاز تلك التسوية، لكن من الممكن - في ضوء تحليلات وكتابات ودراسات وتقارير امريكية وغربية وعالمية عديدة - التوصل الى نوع من تقدير معقول لتلك الحقائق والدوافع والاسباب اذا ما قام المرء المتابع بنوع من «الجولة في العقل السياسي والاستراتيجي الامريكي». وطبعا، فان الوصف الحيادي للاكتشافات المنبثقة عن تلك «الجولة» لا يعني بأي حال من الاحوال الموافقة عليها او الاعجاب بها، تماما مثلما انه لا يلزم احدا بتبنيها او الدعوة اليها. وفي هذا السياق، يلاحظ المرء ان النقطة المركزية في العقل السياسي/الاستراتيجي الامريكي الراهن تتلخص في فرضية ان الولايات المتحدة، فيما يبدو، قد اختارت - في هذه المرحلة على الاقل - تجاوز «استراتيجية احتواء الصراع في المنطقة» لمصلحة «استراتيجية ايجاد حل» لذلك الصراع. ففي عالم القطبية الامريكية الاحادية الرأس، حيث لا منافس ولا منازع كما كان عليه الحال يوم كان الاتحاد السوفياتي يمثل دولة القطب او الرأس الثاني، لا يجد كثير من الاستراتيجيين والسياسيين الامريكيين اية ضرورة لمتابعة سياسة «الاحتواء» التي هي بطبيعتها سياسة خطرة. فكيف ذلك؟.

*****

المتنفذون بين صانعي القرار الاستراتيجي/السياسي الامريكي ينطلقون - فيما يبدو - من جملة معطيات وفرضيات يتعاملون معها على اساس انها حقائق ويأتي في طليعة هذه القناعات/الحقائق اعتقادهم بأن المنطقة الشرق اوسطية (وتحديدا بعد انهيار منظومة الدول الاشتراكية وتلاشي القطبية الثنائية وترسخ الانتصار الامريكي في حرب الخليج ١٩٩١) اصبحت مرشحة لأن تكون طوع بنانهم كليا حيث لم يعد ثمة احد «محرزا» يتحداهم او ينازعهم عليها. صحيح انه ما يزال للاتحاد السوفياتي بعض التأثير والمصالح والسياسات الخاصة به في الشرق الاوسط، وصحيح ايضا ان لاوروبا الغربية ما يشبه ذلك، لكن كل هذا الواقع لا يشكل تحديا او حتى مصدر تهديد لمصالح ووجود وهيمنة الولايات المتحدة. وهذه الاخيرة، باتت تعتبر ان غالبية قادة بلدان المنطقة وقواها الرسمية باتوا يعلنون انضمهم حلفاء علنيين (وليس سريين كما في الماضي) للولايات المتحدة بل ويفتخرون بذلك مع ابداء استعدادهم - بعد ان رهنوا مصيرهم بها - الى المضي بعيدا في تثبيت وجودها الذي يعني ايضا تثبيت وجودهم. واذا ما اضفنا الى هذا «الواقع الموضوعي الرسمي الفاعل» حقيقة جبروت القوة الامريكية القادرة على سحق كل مقاومة لوجودها وهيمنتها في المنطقة (وهذا واحد من الدروس المقصودة لحرب الخليج) نستطيع ان نستنتج ان قادة الولايات المتحدة باتوا يتصرفون باعتبار ان المنطقة الشرق اوسطية قد اصبحت مخططتهم! لكن القادة الاستراتيجيين والسياسيين الامريكيين لا يملكون السذاجة او الرعونة التي يملكها حلفائهم الصغار في المنطقة (بما في ذلك «اسرائيل» - الدولة الاقليمية السوبر!) مما يدفعهم الى ادراك مخاطر «سياسة الاحتواء» ومخاطر «سياسة الهرولة» ومخاطر «سياسة الجزمة العسكرية». فهم يعلمون ان قلوب شعوب المنطقة تضطرم بمشاعر الكره لهم كونهم كانوا معتدين على العرب وظالمين ومنحازين لعدوتهم الصهيونية. ولهذا لجأ الامريكيون - فيما يبدو - الى التخلي عن «سياسة الاحتواء» القديمة واستبدالها بسياسة «ايجاد تسوية لمشاكل المنطقة، لكن مرة اخرى، أمانا!».

*****

في ظني ان الامريكيين يعتقدون - وناقل الكفر ليس بكافر - ان بامكانهم السيطرة على المنطقة التي اصبحت مرشحة لأن تكون تماما رهن بنانهم (وليس بالضرورة طوع بنانهم كليا) عن طريق اما اساليب القمع المحلي (عبر حلفائهم في المنطقة) او اساليب القمع العسكري (بالتدخل المباشر). وفي ظني ايضا انهم مستعدون لرفع التكلفة لذلك. لكنهم - فيما يظهر - يفضلون، مثل اي رجل اعمال رأسمالي ناجح، تخفيض التكلفة ان امكن. وفي هذا النطاق، يرى الاستراتيجيون والسياسيون الامريكيون المتنفذون ان سياسة «ايجاد تسوية» هي اقل تكلفة لهم من «سياسة الاحتواء» تماما مثلما ان سياسة الجزرة (ان نجحت) اقل تكلفة من سياسة الهراوة (وبخاصة وانها غير مضمونة النجاح)، ذلك ان الامريكيين يعلمون ان القمع والاضطهاد والاذلال الممارس ضد العرب قد بدأ - منذ فترة - يعطي ثماره: كره شعبي للسياسة الامريكية الى درجة العداء الحاقد، ونمو في الحركات المتطرفة او المتشددة (اسلامية وقومية على حد سواء) ومناخ مؤات للعنف والتعبير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، بل مناخ مؤات «للارهاب» الذي سيستهدف اول ما يستهدف رموز الهيمنة والمصالح الامريكية سواء كانوا من والعرب الاعداء» او «اعداء العرب»! وكي نستخدم عبارة/خلاصة يرددها هذه الايام عدد من المتابعين المهتمين: «يريد الامريكيون ضمان السيطرة على المنطقة بأسلوب التراضي الذي يكفل او يزيد، على الاقل، فرص «الاحتقال» الشعبي العربي العام بوجودهم «والواعده» بالأثر «الازدهاري الانفتاحي» وفقا للصورة الامريكية المتداولة والتي يروج لها الاعلام الرسمي العربي بغالبيته، بدلا من ضمان السيطرة عن طريق الجزمة العسكرية المكلفة لهم من جهة والمثيرة لغضب وسخط وتحرك الشارع العربي ضد حلفاء الولايات المتحدة العرب اولا وضدها ثانيا. انهم يطمحون بأن تستقبل الجماهير العربية الوجود الامريكي بالورود (كما فعلت بعض الجماهير الاوروبية الاشتراكية سابقا!!!) لان

Digitized by Birzeit University Library

يستقبلوه بالبيض الفاسد وربما الرصاص!! ولهذا كله، تظل من جديد النقطة المركزية في التفكير الاستراتيجي/السياسي الامريكي الجديد والتي قوامها اعتمادا سياسة ايجاد الحلول للمشاكل المستعصية في المنطقة باعتبار ذلك ضمانة ما بعدها ضمانة للاستقرار الامريكي وعلى مدى او «في احضان» العالم الشرق اوسطي!.

(٢)

الطروحات المتشائمة والمتفائلة والمتشائلة

مايزال الرأي العام في الشارع السياسي العربي، ومن ضمنه الفلسطيني، يعيش حالة فكرية/سياسية ساخنة، بل ان درجة حرارة تلك الحالة قد ارتفعت، كما هو منتظر، خلال الاسبوع المنصرم لتصل في بعض الاوقات الى درجة الغليان. ذلك ان الحوار، واحيانا الجدل، الدائر حول الجهود والمساعي السياسية السلمية الامريكية اساسا قد اشتد منذ النصف الثاني من شهر تموز/يوليو الماضي. بل ان البعض يحدد فاصلا زمنيا واضحا لحركة الحوار، او الجدل، المشار اليها اذ يؤكد انها قد تسارعت منذ الاعلان عن «تمويل في الموقف السوري» عشية انعقاد قمة الدول الصناعية، والبعض يقول قمة قادة العالم الغربي المتحلق حول الادارة الحاكمة في الولايات المتحدة. وفي هذا النطاق، فان الشارع السياسي العربي منقسم حول النوايا الامريكية. التي يسميها البعض النوايا امريكواسرائيلية، وفي حين يعتقد فريق اول ان الولايات المتحدة بقيادة «الواسب» (اي البيض من الانجلو - ساكسونيين البروتوستانت) قد قررت فرض «حل امريكي» على كل من العرب والاسرائيليين، فان فريقا ثانيا يرى ان القيادة الامريكية لا تفعل ما هو اكثر من فرض «حل اسرائيلي» بالنيابة: اذا كانت الدولة الصهيونية قد خاضت حروبا امريكية/اسرائيلية ضد العرب بالنيابة عن الولايات المتحدة في الماضي، فان الولايات المتحدة التي خاضت حربها هذه المرة ضد العراق (والامة العربية) بشكل مباشر قد قررت ان تكمل ما بدأته بحجة «تحرير الكويت» فتكمل الدائرة بفرض «حل سياسي اسرائيلي» بعد ان فرضت بالاصالة عن نفسها، وبالنيابة عن «اسرائيل» حلا عسكريا حمى الدولة الصهيونية من العراق حاضرا ... ومستقبلا!! ولهذا ينتهي الفريقان، الاول والثاني، الى استنتاج مشترك قوامه ان الجهود السياسية الامريكية الراهنة النشطة قد تجاوزت «سياسة احتواء الصراعات» في الشرق الاوسط التي طبعت استراتيجيا منذ حرب السويس ١٩٥٦، وصولا الى «سياسة ايجاد حلول» لتلك الصراعات بحيث تنهيها» مرة واحدة .. والى الابد او تجمدها - على الاقل - لفترة طويلة قادمة تكون الولايات المتحدة اثناءها قد اقامت امرا واقعا جوهره «ان اسرائيل قامت ... لتبقى»

مثلما تكون قد استنفذت ينابيع المال النفطي العربي (وارادت وارصدة) وحلبت الاقتصاد العربي من خلال تحويله الى سوق جشعة للمنتوجات الامريكية والاسرائيلية، ولكن، ثمة من يسأل او يتساءل (ومعه الحق في ذلك): هل الطرح، او السيناريو الوارد اعلاه، هو السيناريو الوحيد؟ اليس ثمة طرحا آخر، رؤية اخرى؟.

*****

نعم، ثمة طرح آخر ورؤية اخرى تمثل نقيض السيناريو الاول انف الذكر، بل ان اصحاب السيناريو الثاني هذا يرون في اصحاب السيناريو الاول مجموعة من الواقعيين السوداويين المفرطين في التشاؤم. وعند هؤلاء طرح خاص بهم مؤداه ثقة شديدة في قيادة الثنائي المؤلف من جورج بوش الرئيس الامريكي ووزير خارجيته جيمس بيكر. واذا كان هؤلاء يوافقون على ان ذلك الثنائي الامريكي هو الممثل الحقيقي لمصالح قوى (الواسب) المرتبط اولا وثانيا وعاشرا بالمصلحة الامريكية العليا، فانهم يعتقدون ايضا ان الادارة الحالية في الولايات المتحدة هي الان بصدد فرض الحل الامريكي وليس اي حل آخر. ذلك ان اصحاب هذا السيناريو، المهتمين بالافراط في التفاؤل والمصرين على انهم مجرد واقعيين متفائلين، قد استنتجوا ان التعارض الامريكي/الاسرائيلي قد وصل الى درجة التناقض مما اصبح يستدعي حلا امريكيا بدلا من الحل الاسرائيلي القائم فعليا منذ سنوات والذي اعتمد على سياسة القضم والضم والهضم الممارسة صهيونيا تجاه مجمل الاراضي الفلسطينية باعتبارها ارض اسرائيل الكاملة! ففي ظل قيام التيار الحاكم في الدولة الصهيونية في التمادي في غيه وضلاله من خلال ايغاله في التطرف اليميني، اصبحت المصالح الامريكية في المنطقة، بل وخارجها ايضا، مهددة سواء على المدى القريب او المدى المتوسط او المدى البعيد خصوصا. ذلك ان صورة الولايات المتحدة التي تجسدت على هيئة «المدافعة الاولى عن الشرعية الدولية» إبان «حرب تحرير الكويت» ستكون مهددة بالنسف الكامل عند قطاعات واسعة في «العالم» وبالذات الشطر الغربي منه، لو انها لم تقم بقيادة العالم من جديد نحو تطبيق الشرعية الدولية في الصراع الفلسطيني/الاسرائيلي وفي النزاع العربي/الاسرائيلي! لا بل ان مصالح الولايات المتحدة - وهذا هو الامر الاهم - ستكون مهددة في العالم، وفي الشطر العربي والاسلامي منه خصوصا، ان هي استمرت في سياسة الانحياز لاسرائيل وفي سياسة المعيار المزدوج والنفاق والرياء السياسيين، فالولايات المتحدة عندئذ ليس فقط لن تنجح في قيادة العالم (الممتلك منذ فترة لمزاج سلمي/بنائي/تطويري/انمائي بعيدا عن سياسات سباق التسلح ونتائجها المدمرة لثروات العالم) بل ستضطر ايضا الى دفع تكاليف باهظة جدا في حالة ما اذا قررت فرض هيمنتها على العالم

Digitized by Birzeit University Library

باسلوب الهراوة او الجزمة العسكرية! و يضيف اصحاب هذا السيناريو الى ذلك استخلاصهم بأن النظم العربية التي تحالفت مع الولايات المتحدة في «حرب الخليج» ستكون مهددة بالانقراض بعد ان خسرت كل او بعض شرعيتها في اعين الشارع السياسي العربي/الاسلامي اللهم الا اذا سارعت الى انقاذ نفسها - او بالاحرى انقاذ الولايات المتحدة لها - من خلال حل امريكي/غير اسرائيلي/ «معقول» عربيا! وفي مثل هذه الحالة، فان النظم العربية الحليفة لامريكا ستكون مرشحة للترسخ و «تجديد الشباب» بدل الامتزاز .. والموت، وعلى قاعدة: والم اقل لكم ان الولايات المتحدة جديرة بتحالفنا ليس لتحرير الكويت فقط وانما لتحرير الاراضي العربية المحتلة ايضا و/او على قاعدة: «افضل فك ارتباط للتحالف الامريكي/الاسرائيلي هو من خلال تأسيس التحالف الامريكي/العربي وفقا لما نادى به نوري السعيد منذ ما يزيد عن ربع قرن.

*****

اما دعاة السيناريو الثالث فهم يرفضون - ليس بالتساوي بالضرورة - افراط المتشائمين السوداويين من اصحاب الطرح/السيناريو الاول، تماما مثلما يرفضون افراط المتفائلين الورديين من اصحاب الطرح/السيناريو الثاني! ومع انك ترى في هذا التيار الواسع قوى اقرب لدعاة السيناريو الاول في طرف البندول السياسي، وقوى اقرب لدعاة السيناريو الثاني في الطرف المقابل من البندول السياسي ذاته، فان ثمة عمودا فقريا لهذا التيار يتخذ فيه موقع الوسط العريض.

وفي هذا النطاق فان التيار الاغلبي الوسيط ضمن اصحاب السيناريو/الطرح الثالث المشار اليه هاهنا له رؤيته الخاصة به، فهو تيار لا يرى تناقضا، او حتى تعارضا بارزا، بين «الحل الامريكي» و «الحل الاسرائيلي» و «الحل العربي المعقول». او بالاحرى الحل الذي «يجب» ان يقبل به العرب تجنبا للحل الاسوأ او تجنبا للحل الاكثر مرارة ... وبين امرين كلاهما مرّ ... لكن احدهما مجرد خيار مرّ في حين ان ثانيهما هو العلقم او الحنظل بعينه! وطبعا، نحن هنا نتحدث عن التيار الذي اشتهر منذ فترة باسم «دعاة انقاذ ما يمكن انقاذه» او الذي اشتهر مؤخرا باسم «دعاة الخوض في التسوية الخطرة باعتبارها اقل خطرا من تفاقم الامر الواقع الراهن على منزلق اللاتسوية الاكثر خطورة على الواقع والمستقبل العربيين». وفي هذا السياق، يرى اصحاب هذا الطرح ان الجهود الحالية في نطاق مساعي التسوية السياسية مفتوحة على اكثر من احتمال، وبالتالي مفتوحة - في نهاية المطاف - على اكثر من اتجاه ستتخذه المساعي الجارية على قدم وساق منذ انتهاء حرب التحالف الامريكي/الاسرائيلي ضد العراق.

(٣)

هل «أفضل» الحلول المطروحة هي صيغة شمعون بيرس

الاحاديث والحوارات والمحاضرات واللقاءات الاجتماعية تزخر هذه الايام بنقاشات واسعة عن «الجهود الامريكية» لتحقيق تسوية سياسية في المنطقة الشرق اوسطية. وفي حين يعترف الجميع، باجماع لا سابق له، بالدور القيادي الكاسح للولايات المتحدة وبالتصميم الكاسح عندها لايجاد حلول للصراعين العربي/الاسرائيلي والفلسطيني/الاسرائيلي مما اقتضى تسميتها بالجهود الامريكية بدلا من تسميتها بالجهود الدولية مثلا، فان النقاشات حول مساعي التسوية تتسم بالاختلافات التي لا تخلو احيانا من بعض السخونة او الغليان، مثلما هي لا تخلو احيانا من بعض السوداوية المتشائمة او التفاؤلية السطحية ناهيك عن المرارة المتفاوتة! والاختلافات هذه تدور اساسا حول النتائج والصيغ التي ستنتهي اليها تلك الجهود في نهاية المطاف. واذا كان من سبب رئيسي كامن وراء سخرية او غليان النقاش فانه، بالتأكيد، «النهج اليقيني» الذي يعتمده الفرقاء المختلفون في المواجهات السياسية / اللفظية الدائرة! والمقصود هنا، ان الفرقاء المختلفين قد شكلوا اراءهم منذ فترة، او منذ اللحظة الاولى للجهود السلمية وللتحرك التسووي الاخير، عن غاية ومنتهى هذه الجهود التسووية. والغريب ان قلة فقط هي التي ترى ان منتهى الجهود تلك مرهون اساسا بمسيرة التسوية اي بصراع الارادات والمصالح وتشابكها لدى الفرقاء المعنيين، علاوة على اداء الاطراف المتصارعين. ذلك ان النقاشات، في الغالب، تتجمد او تتيبس عند اولئك المتمترسين في خنادق قناعاتهم. فثمة من يقول ان الحل القادم هو بالتأكيد حل اسرائيلي بحت. وثمة من يقول انه حل امريكي صرف. وثمة فريق ثالث يقول بأن ما هو قادم يمزج ما بين الاثنتين مما يجعله حلا اسرائيليو امريكي او في احسن الاحوال حلا امريكو اسرائيلي!! والمحزن، بل المفجع، ان واقع الحال وما عكسه من تطورات لم يسمح لنشوء فريق رابع يقتنع بأن ما هو قادم هو حل عربي، ناهيك عن بروز فريق خامس يقتنع بامكانية الحل الفلسطيني! وهكذا، فان اغلب الظن - وليس كل الظن اثم!! - ان هنالك اجماعا في الشارع السياسي العربي وتحديدا في اوساطه القيادية على ان غاية المنى عند العرب الداخلين في العملية السياسية، بشكل مباشر او غير مباشر، تتلخص في نجاحهم في «تحسين» شروط التسوية القادمة التي لا ريب فيها ! ولا بأس هنا من بعض التفصيل.

*****

Digitized by Birzeit University Library

يوافق عرب كثيرون، كي لا نقول «يجمع العرب»، على ان الحل القادم انما هو حل امريكو اسرائيلي في احسن الاحوال: لكنهم، رغم حالة الاجماع التي تنتابهم حول طبيعة الحل، فانهم يختلفون حول ما يتوجب عليهم عمله ازاءه! وفي هذا المضمار، برز تياران رئيسيان: الولهما يقول برفض التعاطي مع ما هو مطروح، في حين يقول ثانيهما بضرورة التعاطي. وجوهر ما يقوله اصحاب الفريق الاول: «علينا تجنب توسيخ ايدينا وضمائرنا وتاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا باللعبة القذرة ذات النتائج القذرة المحسمة لعبة عملية «التسوية السلمية»! ذلك اننا ازاء حل امريكو اسرائيلي مفروض علينا وكله خسائر لنا، اذ انه لا مجال امامنا لتحقيق «تسوية متوازنة» تحمل لنا بعض الخسائر مع بعض المكاسب، تماما مثلما يمكن ان تحمله لعدونا من خسائر ومكاسب، بحيث يصبح ما يتم التوصل اليه «تسوية حقيقية»!! وطالما انه لا مجال للتسوية المتوازنة او للتسوية الحقيقية او «لسلام الشجعان» - يستطرد هؤلاء - اذن لا بد لنا من التوقف عن ممارسة عملية حرمان الاجيال القادمة من حقها في متابعة النضال في ظروف افضل. وفي سياق مختلف، فان جوهر ما يقوله الفريق الثاني يتلخص في ان العرب والفلسطينيين بخاصة لهم مصلحة في التعاطي مع الجهود الحالية للتسوية خوفا من ضياع الفرصة المتاحة، وعلى قاعدة الاعتراف بأن اللعبة قذرة لكن على اساس «اننا مثل الملائكة ... نخوض في الوحل ولا نتسخ!» ومع ان في هذا الفريق من يؤمن بامكانية تحسين الشروط، فان اغلبيته الكاسحة تقول بأن الدول العربية، في ظل «عصر ما بعد حرب الخليج»، ذاهبة لا ريب الى مؤتمر السلام، اي مؤتمر للسلام، وسواء شارك الفلسطينيون ام لم يشاركوا، وان فرص «بيع الفلسطينيين وحقوقهم» ستكون اكبر من غيابهم مما يستوجب حضورهم بل وحضور العرب الآخرين «الاحسن» و/او «الاقل سوء» من «عرب حفر الباطن»! ويخلص هؤلاء الى ان على العرب (ومن ضمنهم الفلسطينيون) ان يقبلوا بما هو ممكن «تجنبا للحل الاسوأ او تجنبا للحل الاكثر سوءا ... بين امرين كلاهما مرّ، لكن احدهما مجرد خيار مرّ في حين ان ثانيهما هو العلقم او او الحنظل بعينه. وطبعا، نحن هنا نتحدث عن الازدياد النسبي في جماهيرية «حزب انقاذ مما يمكن انقاذه» وعلى اساس معادلة قوامها اولا ضرورة الخوض في العملية وفق مقولة ان السياسة هي فن الممكن»، وثانيا «ضرورة الخوض في التسوية الاكثر خطورة على الواقع والمستقبل العربيين»! لكن ما هو «الحل الممكن» وفق ما يراه هؤلاء المنضوون ضمن اطار الفريق الثاني، وما هو ايضا - في الوقت ذاته - «الحل القادم» او «الحل المتوقع» وفق ما يراه الموافقون والرافضون لذلك الحل على حد سواء؟

*****

في ضوء قوة الاندفاع الامريكية، المدعومة سوفياتيا واوروبيا وصينيا بل وعالميا في عصر ما بعد حرب الخليج، وفي ضوء التصريحات الامريكية على اعلى المستويات، ثمة اكثر من صيغة يجري الحديث عنها، فهناك اولا - والعهدة على الراوي - الصيغة الاكثر تشاؤما التي كثر الحديث عنها في الايام القليلة الماضية والقائلة بأن الموضوع عند الاطراف الدولية والعربية الاكثر تأثيرا ضد الاطراف قد انتهى ليس فقط بالنسبة لمنظمة التحرير وللدولة الفلسطينية ولحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وانما انتهى ايضا حتى بالنسبة للصيغة التي قد «ترقى» الى العبارة التي نطقها يوما وزير الخارجية الامريكية والتي قوامها: «ما فوق الحكم الذاتي وما دون الدولة»! وتنتهي هذه الصيغة السوداء الى مجرد منح «فلسطيني ارض اسرائيل» حكما ذاتيا تحت السيادة الاسرائيلية، مع ارضاء الدول العربية المتنفذة اما بمنحها مساعدات مالية (ذات ينابيع عربية) او منحها جزء من اراضيها المحتلة اسرائيليا مع منحها اجزاء من اراضي او من «سيادات» هذه الدولة العربية او تلك، وطبعا بعد وضع المنطقة تحت مظلة «الدولة السوبر اقليميا» -اسرائيل، ووضع كل ذلك تحت مظلة «الدولة السوبر عالميا» - الولايات المتحدة الامريكية!! وهناك ثانيا صيغة بقاء الضفة الغربية وقطاع غزة تحت «السيادة الاسرائيلية» مع منح سكانها الفلسطينيين حكما ذاتيا واسعا، مرحليا، وأوسع مما كان يجري الحديث عنه في مرحلة ما بعد كامب ديفيد وما قبل الانتفاضة. وهذا الحل المرحلي قد يكون لثلاث او خمس سنوات تعقبها مفاوضات على «الشكل النهائي»! ولعل الجانب الاخطر في هذه الصيغة انها صيغة بدون افق محدد! ففي ظل ميزان القوى الراهن - وميزان القوى المتوقع في السنوات القليلة القادمة - فان «اسرائيل» تستطيع خلق امر راهن جديد اكثر سوءا على صعيد زرع مزيد من المستوطنات والقضم والضم والهضم للاراضي الفلسطينية وبالتالي تهويدها وابتلاعها. وثمة صيغة ثالثة يجري الحديث عنها بخاصة في الادبيات الاسرائيلية، وهي تلك التي يطلقون عليها اسم «التقاسم الوظيفي» مع المملكة الاردنية، ووفقا لهذه الصيغة، ورغم الرفض الرسمي الاردني والعلني لمثل هذه الطروحات، فان الاسرائيليين يتحدثون عن امكانية الاتفاق على ترك كافة الامور الداخلية بأيدي السلطات الاردنية مع ترك جميع قضايا الامن والخارجية بأيدي «اسرائيل»، وطبعا في ظل ابقاء الارض تحت السيادة الاسرائيلية!! واخطر ما في هذه الصيغة انها تنسف الاستراتيجية الاردنية/الفلسطينية القائمة على اساس اقامة كيان فلسطيني على التراب الفلسطيني «يتقاسم» مع الاردن الشؤون المشتركة في الدولة المتحدة عبر صيغة كونفدرالية. ومع ان تجمع المعراخ وحزب العمل عموما (وتكتل اسحاق رابين تحديدا) يدعمون

Digitized by Birzeit University Library

صيغة التقاسم الوظيفي ان لم يكن ثمة مجال غيرها، فانهم (وخصوصا تكتل شمعون بيرس) يفضلون صيغة رابعة قوامها ما اسموه «الحل الاقليمي». والمقصود بهذا الحل اعادة كامل قطاع غزة تقريبا مع اجزاء واسعة من الضفة الغربية (باستثناء القدس) الى الاردن بعد التخلص من بعض المستعمرات (المستوطنات) والابقاء على بعضها الآخر (وبخاصة الحدودي منها). واما مستقبل القدس فانه يخضع الى اكثر من صيغة: اما اعادة تقسيمها كما في الماضي وهي اضعف الصيغ، او تدويلها تماما وهي صيغة ضعيفة جدا او تطبيق معادلة تقوم على اساس «القدس الموحدة» مع تقسيم المدينة الى بلديتين مستقلتين بعد تدويل المدينة من حيث السيادة، وهذه المعادلة الاخيرة هي الصيغة الاكثر تداولا هذه الايام في بعض الاوساط والمحافل الغربية اساسا.

وازاء كل هذه الصيغ، يبقى السؤال الكبير: هل ثمة ما يمكن عمله لوقف جميع هذه الصيغ المتفاوتة في قوة تصفيتها للحقوق العربية، او - على الاقل - لتحسين الشروط الراهنة ولزيادة امكانية تطبيق الصيغة الاقل من غيرها سوءا وكارثية؟ وكيف ستكون عليه التطورات اللاحقة في المنطقة اذا ما فشلت الجهود التسووية الراهنة هذا ما سنحاول الاجابة عنه في مقال لاحق.

قائمة بأسماء شهداء الشهر السادس والاربعين للانتفاضة

مع صدور هذا العدد تنهي الانتفاضة شهرها السادس والاربعين، لتدخل الشهر السابع والاربعين في ظل جهود سياسية حول مؤتمر السلام ونتائج اعمال المجلس الوطني الفلسطيني، وخلال الشهر الماضي سقط (١٢) شهيدا، وبذلك يصل عدد شهداء الانتفاضة الى (١١١٦) شهيدا، وفيما يلي قائمة بأسماء شهداء الشهر الماضي:

الاحد ١٩٩١/٩/١

- رائد سميح اسعد قرادة (٢٤ عاما) نابلس. أصيب بعيار ناري في صدره.

الاثنين ١٩٩١/٩/٢

- أحمد محمد سلامة السميري (١٨ عاما) قرية القرارة/قطاع غزة. متأثرا بجراح أصيب بها، اذ دهسته سيارة عسكرية خلال مطاردته للقبض عليه.

الجمعة ١٩٩١/٩/٦

- أحمد سعيد باير كميل (٣٧ عاما) قباطية/جنين. أصيب بعيارات نارية.

السبت ١٩٩١/٩/٧

- عمر حسن زيدان (٣٥ عاما) قرية فقوعة/جنين.

الاحد ١٩٩١/٩/٨

- محمد خير عبد الحميد خيرالله القمصص (٢٠ عاما) جنين. استشهد في أعقاب اشتباك مسلح مع قوات الجيش.

الجمعة ١٩٩١/٩/١٣

- علاء شعبان محمد الرطروط (١٧ عاما) نابلس. أصيب بعيار ناري في صدره.

السبت ١٩٩١/٩/١٤

- براق «نظير صلاح» ياسين المصري (١٧ عاما) نابلس. أصيب بعيار ناري في رأسه خلال مصادمات جرت في حي الشيخ مسلم في البلدة القديمة.

الاحد ١٩٩١/٩/٢٢

- محمد علي جميل حوشية (١٦ عاما) قرية قطنة/رام الله. أصيب بعيارات نارية أطلقها أحد أفراد دورية عسكرية.

الاربعاء ١٩٩١/٩/٢٥

- صابر محمد أحمد أبو فرحة (٢٤ عاما).
- حسن عاهد حسن كميل (٢٢ عاما).
- أحمد أمين صادق كميل (٢٣ عاما).

ثلاثتهم من قباطية/جنين. أستشهدوا في اشتباك مسلح قرب قرية فقوعة.

السبت ١٩٩١/٩/٢٨

- رامي عبد اللطيف قطيفان (١٢ عاما) الشيخ رضوان/غزة. أصيب بعيار ناري بالرأس يوم ١٩٩١/٩/٢٦.

وأسرة تحرير مجلة «الكاتب» اذ تنحني اجلالا للشهداء البررة، تتقدم من شعبنا الفلسطيني واهل الشهداء بخالص العزاء.

Digitized by Birzeit University Library

اية ديمقراطية تقصدون؟!

صافي صافي

كثر الحديث في الفترة الاخيرة عن الديمقراطية، وبالذات بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، ووصل الحديث الى لمس الجوهر حينا، والى معالجة قضية صغيرة هنا وأخرى هناك حينا آخر، واذا كنا نُقدر عملية البدء في هذه المناقشات كقضية تقتضيها الضرورة، فاننا في نفس الوقت نُحذر من الانجراف مع التيار الزائف (تيار «العالم الحر») ومحاولة الاقتباس ولبس عمامته واعتماد الديمقراطية بمفهومها الغربي لنقع بالتالي في نفس الخطأ الذي وقعنا فيه سابقا حينما اقتبسنا مقولات غيرنا، فالديمقراطية ليست وصفة جاهزة (اسبرين ملبس او مسحوق غسيل او حليب نيدو) نتناولها كلما وقعنا في ازمة واحسسنا بالوجع في دماغنا، فأهمية الديمقراطية تكمن في قدرتها على: ١) تقدير حاجات الجماهير والتوجه نحوها ٢) اشراك الجماهير في عملية صنع القرار ٣) وضع برامج سياسية واجتماعية واقتصادية بمراقبة شعبية ٤) انتخاب مُمثلي الشعب المناسبين لتنفيذ هذه البرامج ٥) محاسبة هؤلاء المُمثلين في حالة انحرافهم او تقصيرهم ومساندتهم ودفعهم لتطوير هذه البرامج.

والديمقراطية هي آلية للعمل الجماعي تحتاج الى ادوات تواكب المرحلة التي نعيش (وهذه بحاجة الى نقاش جدي)، وليست ضربا من الترف الصالوني والمفخرة والسمو الفكري، وهي ليست ايضا حقلا للمزايدة في السوق السياسي والنقابي والمؤسساتي، ولكنها عملية متكاملة تتركز بشكل خاص في وسائل الاتصال بالناس وعرض البرامج المختلفة امامهم حتى يستطيعون الاختيار والحكم، بما يعنيه ذلك من اساليب الممارسة وآلية العلاقة مع الناس، وتطوير الوعي والمعرفة بما يعنيه ذلك في المجال الاقتصادي والتعليمي من تطوير للقديم والتعامل مع واقع مستجد، ومن ثم الاختيار الانتخابي والمراقبة السليمة، بهذه الطريقة فقط نستطيع ان نضمن التقدم الى الامام والتغيير نحو الأحسن.

فالديمقراطية لا تكمن فقط في ايجاد القاسم المشترك الاعلى بين آراء الجماهير، وانما الذهاب أبعد من ذلك: تسليم الجماهير ما حجب عنها من معرفة، وتقصي طبيعة الاوضاع التي نعيشها من جوانبها المختلفة ومن ثم البحث في وسائل حل الازمات التي نعيش، ورفع مستوى المعيشة الى درجة أعلى بتشابك العناصر الاولية جميعها لايجاد برامج تحاكي المستقبل القريب عبر فترة زمنية محددة (فترة الانتخابات البرلمانية)، اذ ان الديمقراطية لا تحاكي الماضي او الحاضر (بالمعنى الجامد)، ولكنها تنطلق من هذا الحاضر بماضيه لترسم برامج المستقبل المتجه نحو البناء الذاتي للجماهير الواسعة، واذا كانت هذه هي مهمة الديمقراطية فانها تضع برامج اقرب ما تكون نظرية، لانها لم تخضع للتجربة بعد، وبذلك فان خضوعها للتجربة واستكشاف ايجابيات وسلبيات البرامج المقرة يكون حافزا آخر لتطوير البرامج، تعديلها وحتى الغائها وفق مراقبة شعبية دقيقة لما يجري وبتوفر المعلومات الكافية حولها.

وبناء على ذلك (الدفع بالمجتمع الى الامام) فان الآلية نفسها تكون بحاجة الى تعديل وتطوير وحذف واضافة مستجيبة لمتطلبات المجتمع وكلما دعت الضرورة الى ذلك حتى يستطيع امتلاك القدرة على

Digitized by Birzeit University Library

المتابعة والمراقبة والمحاسبة والاختيار، وربما ينبثق عنها آلية أخرى، بمعنى ان المشكلة قد لا تكون في البرامج وحدها وانما في آلية وضع البرامج وتطبيقها وتشكيل الهيئات واستبدالها واسقاطها، وفي الاتصال بالآخرين وحقوق التعبير عن الرأي والاجتماع والنشر واقامة المهرجانات والتظاهر والاضراب والعمل والتنقل واقامة الجمعيات والمؤسسات والاطر كوسائل لتحقيق الديمقراطية.

هل هناك ديمقراطية فلسطينية؟

لقد ذهب الكثيرون في الداخل والشتات الى نفي هذه الصفة بشكل مطلق، بينما راح البعض يدافع عنها، وهناك من وصل به حد الحديث عن عوارض وامارات نعيشها في هذه اللحظة لكنها قد لا تكون ملازمة لنا طوال حياتنا، حيث المفصل التاريخي الذي نقف امامه، الا ان هذا «الهوس الديمقراطي» لا يمتد الى الماضي البعيد، فهي تحاكي حدثا سياسيا سيكون في الغالب عابرا، وهنالك من وضع يده على بعض الاشكالات وعالجها بشكلها المجرد، وهناك من استفتى بأن الديمقراطية بمفهومها العام تكون في تحقيق الديمقراطية داخل الاطراف السياسية نفسها، وهناك من خلط بين ديمقراطية هي وليدة اطر سياسي معين وبين الديمقراطية بمفهومها الاوسع، وثمة آراء عبثية تجري من خلالها الديمقراطية الفردية والحرية الشخصية وترك المجتمع هكذا ... ليعيد تشكيل نفسه، وهناك ... وهناك ...

وسأحاول في هذه المقالة الاجتهاد قدر الامكان معتمدا على رؤيتي الشخصية لايجاد صيغة نستطيع من خلالها بناء مجتمعنا والنهوض به قدما، وتبدو هذه المهمة صعبة التحقيق في ظل عدم توفر المعلومات الكافية (المعرفة) حول طبيعة مجتمعنا، لكن، يمكن نقض الشكل ذاته اذا ثبت ان مجتمعنا لا يستطيع الاستجابة له، وهذا بالتالي يؤدي بنا الى تغيير الشكل او الى ايجاد ادوات جديدة يمتلكها الشعب ليستطيع الاستجابة له والانغماس فيه.

النموذج الفلسطيني الحالي:

ليس صحيحا ان م.ت.ف تفتقر الى الديمقراطية كما انه ليس صحيحا ان الاطراف ذاتها، المشكلة لهذا الاطار تفتقر الى الاخرى الى الديمقراطية، وفي نفس الوقت فان العقدة البونابرتية مازالت تشكل احدى اهم سماتها، وساحاول تبيان ذلك.

اذا كانت المنظمة نفسها، او الاطراف المكونة لها تتكون من هيئات مسؤولة وقواعد، فانه اذا تطلعنا الى هذه الهيئات (ل.ت، م.م، م.و، ل.م، ... الخ) في كل تلك يتم مناقشة القضايا المختلفة والاوضاع المعاشة بصورة شبه ديمقراطية، ويتم اتخاذ القرار بالتصويت الديمقراطي، وغالبا ما يتم تشكيل الهيئات العليا بالانتخاب، وكذلك يكون النقاش على مستوى القاعدة مع الاختلاف في المستويات وخضوع الأقلية للأغلبية والمستويات الدنيا للمستويات العليا، فاذا كان الامر كذلك، فأين هو موطن الخلل؟

في سياق البحث عن موطن العلة علينا اخذ الامور التالية بعين الاعتبار:

أ- انعكاس النموذج الاجتماعي في النموذج السياسي:

ان ذلك يحاكي بشكل شبه تام ما هو موجود في الواقع ولكنه لا يحاكي المستقبل، فمجتمعنا وبالرغم من كل التقدم الذي حصل فيه الا انه لازال يعاني من القبلية في المدن والقرى الفلسطينية التي لم تتخلص بعد من حمائل وعائلات ويرأسها شيوخ ومخاتير ووجاهات وأعيان مازالت تقوم بدورها حتى الآن، وهؤلاء الرموز يرعون بالفعل مصالح أطرهم (الحمائلية ـ الخ)، ويتشاورون مع الرموز الأصغر منهم «سنا» و «قدرا»، ويهمهم ان يظلوا ممسكين بكل الخيوط معا وفي نفس الوقت، ولكنهم في النهاية هم من يتخذون القرارات، هو (الرمز) الذي يستمع لكل صغيرة وكبيرة، هو الذي يرى السلبيات والايجابيات، لكنه هو في النهاية الذي يُملي شروطه وقناعاته على غيره سواء كان في اطاره نفسه (حمولته) او في ايجاد القاسم المشترك لحل اكثر عدلا مع الحمائل الاخرى، وفي هذا الاطار تفرض الآراء فرضا، يقرها الكبار وينفذها الصغار وفق موازين دقيقة وتفاوضية للطبيعة الاجتماعية، وبمعنى آخر فان هذا الرمز يظل يحتمي بقوة حمولته امام غيرها، ويفرض على حمولته ما تم التوصل له دون ان يؤدي ذلك الى فقدان قوته، وعادة وحسب هذه الآلية المعقدة، يظل الرمز الى ان يموت فتبدأ معركة جديدة لاحتلال منصبه قد يستطيع احدهم عليه ولكن في أحيان اخرى يتفق على اكثر من شخصية لاحتلال مركزه (وزراء بدون رئيس مركزي).

وهذا ما هو موجود تقريبا في الأطر السياسية، بل وفي الكثير من الدول العربية، فالذين شكلوا أول خلية في اي طرف هم الذين مازالوا على رأس الهرم، ولا يعلم سوى الله متى سيسلمون او يتركون مناصبهم خاصة اذا كان لدينا الحق بالتساؤل: هل شعبنا لم يستطع انتاج قادة جددا !!.

وما يعيب هذا النموذج، هو انه يعتمد على التشكيلة البونابرتية، تشكيلة الشخص الواحد القادر على ربط الشعب به حتى لو

Digitized by Birzeit University Library

كان نحو الهلاك، وهذا النموذج ينتقص ويقمع الاصوات الاخرى، وتكون فيه الديمقراطية محدودة جدا، أما العيب الثاني فهو محاكاة الواقع بشكله القديم رغم ان هذا الواقع بدأ يتغير منذ فترة طويلة وتجاوز الواقع الماضي، وبذلك فان النموذج السياسي هذا لا يحاكي المستقبل.

ب - استنساخ نماذج لا تتلاءم مع طبيعة مجتمعنا:

١- على صعيد الايديولوجيا:

ان عدد الاحزاب والجبهات التي تبنى الماركسية اللينينية وما حولها، لهو عدد كبير بالمقارنة مع الاحزاب الاخرى، ومع ان هذه الاحزاب ادعت ومنذ فترة طويلة بامتلاكها النظرة الشمولية الا انها وقعت، او اوقعت نفسها، في صدام مع حركتين اصيلتين ومتداخلتين الى حد بات من الصعوبة الحديث عن احديهما دون التطرق الى الاخرى، وهما الحركة الدينية والحركة القومية، مع العلم ان تاريخ الحركة الماركسية يمتد منذ اواخر القرن الماضي بينما هاتين الحركتين يمتد تاريخهما منذ ما يزيد على خمسة عشر قرنا، ووصل الصدام في اكثر من موقع الى حد كانت نتيجته تصفية هذه الاحزاب او الحركات. قد يقول قائل بأن هاتين الحركتين او تحالفهما او استغلالهما من قبل الاستعمار كرأس حربة ضد التحرر كان السبب، ولم يكن ذلك قصورا من هذه الاحزاب والجبهات، وهذا في اعتقادي لهو مجرد قول تبريري ليس الا، فهذه الاحزاب والجبهات قد عملت على نسخ ما قيل وما مورس في الخارج (خارج الوطن العربي والاسلامي) ونقلته كما هو بحذافيره، ومن حقنا أن نتساءل: أيسبب ان كان هناك صراع بين الكنيسة والاحزاب التقدمية في بلاد اخرى، كان يجب ان يُهاجم الدين ويوضع في صفوف الاعداء؟! هل استطاعت اية جبهة محاكاة الجمهور في هاتين القضيتين؟! لماذا لم تستطع هذه ايجاد قاعدة جماهيرية واسعة خارج نطاق المثقفين والمتعلمين؟!.

وهناك تفاصيل اخرى عديدة منها الادعاء ولفترة طويلة بأن هناك طبقة عمالية وفلاحية، وهذه بالتالي تستطيع السيطرة على مجتمع مثل مجتمعنا، ثم المحاولات القسرية لعزل الطبقة البرجوازية عن مسيرة النضال الوطني، وهناك قراءات غير واقعية تم اسقاطها على المجتمع بسبب دفع ثمن «سياسة السلم العالمية» أو «وحدة الاحزاب الشيوعية والاشتراكية» و «مقاومة الامبريالية» حسب خطة عالمية تهتم غالبا باهتمامات «المركز» ولا نهتم بتفاصيل الذين يدورون في فلكه.

٢- على الصعيد التنظيمي:

من المعروف لكل الناس وأي مهتم، ان البناء التنظيمي ليس هدفا في حد ذاته، وانما هو مجرد اداة لاختبار وتحقيق الاهداف السياسية والفكرية، ولكن ما يحدث على أرض الواقع، وما حدث ايضا، وبالانسياق الى النوازع الفئوية والشخصية والأخطاء التي ذكرت اعلاه فان البنى التنظيمية تحولت الى هدف في حد ذاتها، دون اي حساب حقيقي للمهمة التي تقع على عاتقها وانطلقت من اجلها وبدلا من وضع هذا الشعار (الاداة التنظيمية) لاقناع الجماهير الواسعة بالبرامج وتعديلها وتطويرها عبر التجربة وتنظيمهم ودمجهم في العملية النضالية ليكونوا هدفا وأداة لتحقيق الاهداف القريبة والبعيدة المدى، فان هذه الاحزاب والجبهات قد حاولت بناء صومعاتها «تحت الارض» ولم تستطع الانطلاق الى جمهور واسع يؤهلها لقيادة شعب، وبالتالي فقدت اهدافها واهم ادواتها (وهي الناس)، وفقدت قدرتها على اختيار برامجها، وكانت بدلا من ذلك تعزو في الغالب عدم جماهيريتها لأسباب خارجية مما ادى الى دفن والتغاضي عن الأسباب الداخلية (الذاتية).

وهناك سبب آخر في عدم ملاءمتها للمجتمع وفي الانتقاص من ديمقراطيتها، وهو المستويات التنظيمية، اذ انني افترض ان هناك شخصا مثقفا واكثر تجربة وممارسة يتابع وينفرد» بعدة اشخاص أقل منه ثقافة وتجربة وممارسة، وهذا ينتقص من ان كل الثقافة للجماهير وليس للاعضاء فهؤلاء لا يعيشون في نفس المستويات الثقافية، وفي هذا النموذج لا يتم مناقشة القضية بشكل ديمقراطي كاف، بل يجري بشكل «أوامري» (آمر مأمور)، اذ ان الديمقراطية يلزمها وجود تعددية الآراء وتضادها والكثير من الناس، ولهذا سميتها وانفرادها وعلى ضوء المعلومات المختلفة والمستويات الثقافية ومناقشة التفاصيل بعيدا عن الهيمنة «الستوياتية»، والقدرات والاقناعية» فان هناك انتقاص وحجب لمعظم ما يجري، ويتم التحريض والتعبئة على شكل حقنة والانسولين» التي لا يمكن الاستغناء عنها لفترة والا بطل الانتماء والعمل الفئوي والذي اذا ما غاب في ظل عدم وجود صراع على اسس برنامجية تحطم الهيكل، وحتى يستدرك الهيكل قبل ان ينهار فلا بد اذا للافكار المثالية أن تنبت، والاوهام تتزايد، والخرافات تتشكل دون اي حساب للحقيقة والمعرفة العلمية التي وقبل ان تعرض على الجماهير ان تعرض اولا على الاعضاء.

فالمطلوب على الدوام من هؤلاء (المنتظمين) ان ينطلقوا الى الناس دعاة لافكارهم!! كيف؟! كيف يمكن الانطلاق

Digitized by Birzeit University Library

على اوسع المستويات الجماهيرية وفي نفس الوقت المحافظة على السرية «المطلقة»؟! وهل يمكن ان «يبنوا» الا بالطريقة التي «يُبنوا» بواسطتها؟! وبالتالي فانه ومهما قدموا من جهد وبذلوا من «تفاني» فأي نسبة جماهيرية سيملون؟ (من دمنو قليلو).

جـ - الادعاء بالمعرفة الشمولية:

منذ بداية هذا القرن، ومنذ تركز الصراع في هذه المنطقة، بدأت الاحزاب بالانطلاق، وكانت المرحلة الثانية لانطلاقاتها في العقد السابع من هذا القرن، وقد توافقت تشكيلتها هذه مع تأصل العلاقات الاقطاعية والعشائرية والحمائلية (اكثر مما هو موجود الآن)، وتلك المراحل كان يرافقها بداية الانبعاث الثقافي والفكري في ظل انهدام وتراجع التيار الاسلامي كمشروع سياسي، واذا كان المشروع السياسي والفكري الاسلامي يحمل في طياته الشمولية في الاقتصاد، والثقافة والفكر، والقضايا الاجتماعية (الزواج، الميراث، التعامل، العلاقة الربانية، ... الخ) وكل شيء، فانه قد جرى البحث عن افكار اخرى «شمولية» تستطيع ان ترخي سدولها على كل كائن والاجابة على كل سؤال، والنظرية الماركسية بلا شك احداها، وأخرى اقامت نفسها على اسس شمولية أكان ذلك في المسألة القومية (بتعدد تياراتها) او بافكار وسيطة جمعت بين هذا وذاك على غرار «المشروع الاخضر» (مشروع القذافي). وبعضها نجح، الى حد ما، بعضها تراجع، واذا كنت الآن معنيا بمناقشة المشروع الماركسي، فلأني وعلى ضوء انحسار المعسكر الاشتراكي هكذا وبهذه الطريقة وعلى ضوء ما تكشف في السنوات الاخيرة، ارى بأن تطور هذا المشروع الفكري والنظري، قد توقف عند ما قاله ماركس وانجلز وما اضافه لينين في تجربته العملية، ثم انحرفت النقاشات بعدها حول المشروع السياسي بصفته المجسد للنظرية دون الخوض في تطوير المشروع النظري، وهذا ما أدى في هذه المرحلة الى تراجع المشروع الفكري وانهيار صاخب للمشروع السياسي.

وبالرجوع الى ما بدأت فيه، فان المرحلة السابقة كانت هي الاخرى تحمل في طياتها المعرفة في كل شيء فالثقافة اشتملت على السياسة وعلم الاجتماع وحتى العلوم والجغرافيا والتاريخ، وان مجرد القاء نظرة على الاسماء اللامعة يدل على ذلك، لكن ما حدث على ارض الواقع يوما بعد يوم وسنة بعد سنة وعقد يليه عقد، هو ان هذا الثوب الذي لبسه الجميع بما فيه السياسيون ومشروعاتهم بدأ يتمزق، مزقه التقدم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بينما بقي المشروع كما هو، مزقه التخصص العلمي واصبح كل تخصص مجالا محددا له خيوط مع التخصصات الاخرى، بل وان المجال نفسه لا يمكن معرفته كاملا من شخص واحد حتى لو عاش طوال عمره، واصبحت التخصصات ومجالات المعرفة متفرعة ومتخصصة جدا. وبدل ان كان المثقف يستطيع الامساك باطراف العلم ولبه، تمزقت الخيوط وابتعدت ولم يعد حتى امة مكتملة العناصر تستطيع الادعاء بشمولية المعرفة، حتى في السياسة نفسها، فقد اصبحت علما مختلفا ومتعدد الجوانب والتخصصات، واذا كان المشروع السياسي هو في المحصلة تكامل مشاريع علمية بحتة، وتاريخ واجتماع واقتصاد وثقافة ... الخ، واذا كانت هذه كلها من الصعب الامساك بها فكيف يمكن لمشروع سياسي وفكري ان يدعي الشمولية في المعرفة والتطبيق؟!.

د - الادعاء بالجماهيرية والقاء التهم على الجماهير:

لم تتوان اية حركة او حزب او جبهة وعبر بياناتها ووثائقها ومستنداتها ومهرجاناتها او كلما سنحت الفرصة، لم تتوان عن توجيه التهمة للجمهور الواسع والتأكيد على اهمية دوره ووعيه وكفاحيته، ومن ثم ينسلون ليعلموا الجمهور ويعملون على توعيته، ويزجون بعض الاحداث لاثبات المصداقية، ومن ثم يعملون على تهديد الآخرين (سواء كانوا الاعداء القوميين او الفئويين) بالجمهور وبوعيه.

ونستطيع الاستنتاج ان هذه الحركات والاحزاب والجبهات قد نصبت نفسها (استئمرت) مسؤولة عن الجمهور فهي الساهرة على مصالحه وقضاياه، وهي الواقع على عاتقها اهمية توعيته وتنظيمه وقيادته، ولكنها من الناحية الاخرى، وهذا هو الاهم، لم تسأل الجمهور عن مشاكله واولوياته، لم تستشر هذا الجمهور في برامجها او في قيادتها وشكل تنظيمها، ولم تستجب تماما لرغباته، وفي نفس السياق فانها وفي معارضة الاطراف الاخرى فانهم لا يتوانون عن إتهام الجمهور (جمهور غيرهم او الجمهور غير المنظمه) بانه مضلل ومغرر به، وليس على قدر كاف من الوعي .... الخ. وبهذا يصبح الجمهور أداة حماية حينا و «كتابا منزلا» يقسمون به، واداة ضغط، وجهة تُلقى عليه التهم حينا آخر، كل هذا يحدث، والجمهور الواسع لا تعنيه هذه المعارك ولا يشارك فيها الا بقدر انغماسه في «اللا وعي» هذا، وهذا الواقع ادى في النهاية الى الانحراف عن مصالح الجماهير كلها والاختباء وراء شعارات ليس لها صدى جماهيريا.

Digitized by Birzeit University Library

ان البرامج المعلنة في الغالب، هي برامج نظرية في معظمها، اذ تم التعالي عن المهام البسيطة الى مهام كبيرة وواسعة، وتم ربط كل «الصغائر» بالمشكلة «الكبرى» ولم يتم التوصل بشكل كاف الى ان هذه الصغائر مهمة، بل هي لبنات حل المشاكل الكبرى، فالجمهور في الغالب لا يحاسب هذه الاطراف على ما لا يستطيعون القيام به، بل يحاسبونه على التقصير في ما يستطيعون القيام به ولم يفعلوا، كما ان الجمهور الواسع، في الغالب، لا تهمه النقاشات النظرية، اذ يهمه ما يجري على الارض في المجالات المختلفة الزراعة، حقوق العمال، الاستثمار، فرص العمل، الثقافة، ... الخ) ولكن هذه لم يتم اختبارها بشكل عملي وبالتالي بقيت (هذه البرامج) نظرية بعيدة المدى ولا تلمس حاجات الجمهور - اليومية، اذ تصبح الافكار والبرامج «في واد» والحياة «في واد» آخر. والناس تريد ان تعيش حياتها، وليس صحيحا ان «الناس لا تخسر شيئا سوى قيودها» بل وان الحاجات اليومية هذه برغم صغرها و«تفاهتها» احيانا كثيرة، الا ان ادارتها تقع في ايدي على هامش الحركة الوطنية.

«اصلاح» ام استصلاح؟!

اصبح «الاصلاح الديمقراطي» مصطلحا مرافقا لتاريخ المنظمة، وهو في اعتقادي وكلمة حق يراد بها باطل»، ولو قمنا بالقاء نظرة سريعة وبشكل عشوائي على الاسماء والحركات والاحزاب التي رفعت هذا الشعار لاستطعنا معرفة ما يختبىء وراء هذا الشعار، واستطيع التوصل للنتيجة سريعا وهي بأن الهدف كان اما لتحسين موقع هذا الشخص في اطاره السياسي، واما لزيادة «حصة» هذا الطرف من هذه «الكعكة» (انظروا كيف يستغبون الجماهير!)، و «لاكو» هذه القضية حتى افرغت من محتواها، واصبحت قضية غير جماهيرية على الاطلاق، فماذا سيفيد الجمهور الواسع من تحقيق تلك الاهداف؟! وهل سيحققون هؤلاء الشعارات والاهداف العامة؟! وهل سيفيد هذا من طبيعة الحياة «الواقعية» التي يعيشونها ؟! ام هل يعتقدون (الاطراف) انهم يستطيعون «النفخ» في ما تبقى للجمهور من قوة اكثر مما «نفخ» غيرهم؟! وهل عملية «النفخ» هذه مقبولة من الجمهور؟! ام سيتحول الجمهور الى ضحية شعارات النفخ، والتجارب الكثيرة في العالم تدل على ذلك؟!.

ان طرح قضية «الاصلاح الديمقراطي» لا يقصد به -وكما يبدو- توسيع مشاركة الجماهير بمؤسساتها وبنمط حياتها، ومن هنا يبقى هذا الشعار غير جماهيري ولا يمكننا بالتالي تصنيفه على انه ديمقراطي، ويجب ان نرفع صوتنا عاليا، باننا لا نقبل مزيدا من التضليل وزرع الاوهام. اذ انهم يقصدون بأن البناء كله صحيح وما ينقصنا فقط هو الاصلاح، نرمم هذا الجزء التالف من البناء، و «نرقع» هنا، ونبقى على ما هو هناك، لكن الواقع يقول بأننا بحاجة الى اعادة بناء الهيكل العام والاجزاء ايضا، فليس المطلوب هو اعادة ترتيب نفس «الاوراق» بشكل آخر (التباديل والتوفيق) ونقول ان ذلك اصلاحا، بمعنى آخر انه ليس المطلوب هو الابقاء على الاشكال الجزئية واعادة ترتيب نسبها (هم يستندون الى مقولات يصعب اثباتها)، وانما يجب ان تعيد هذه الاجزاء تشكيل نفسها بثوب آخر جديد و «بتطريز» يتناسب مع تراثنا وتاريخنا وذوقنا، وفي نفس الوقت نسعى لتشكيل الهيكل العام بما يتناسب ايضا مع التراث والتاريخ والذوق العام، وقضية الذوق العام هذه لا تحددها فقط مجموعات واطر جماهيرية محدودة، بل يحددها الناس بمزيد من العلاقة معهم، يحددها الناس اذا تم احترامهم واطلاق قدراتهم وابداعاتهم، ان قضية تحقيق الديمقراطية وانعكاساتها و «اصلاحها» يلزمها تغيير الاشكال البالية التي تم التعامل بها خلال الفترة الماضية، وليس ادل على ذلك سوى هذا الانحسار الجماهيري، الانسحاب الى الداخل، الدخول في الصومعات (التقوقع)، بعد ما كان لدى هذا الجمهور الاستعداد - ومازال- والعمل فعلا بكل ما يملك من ذخيرة مادية ومعنوية تصل حد التفاني.

(العلنية - السرية) - العلاقة الجماهيرية:

لا يختلف اثنان ان ظروف العمل العلني افضل جماهيريا من ظروف العمل السري، وهذه بالتالي تكون احدى مؤشرات العمل الديمقراطي، ولكن، هل توفرت ظروف العمل العلني ام لا؟! وما هو السبب في ذلك؟! وفي معرض مناقشة هذه القضية يجب ان نناقش الامر بموضوعية بالغة ودون «مزايدات» قاتلة، اذ يحاول الكثيرون القاء اللوم والاسباب والنتائج على السلطات، متخلصين بذلك من القاء شيء من المسؤولية على ذاتهم، وهنا يكمن الخطأ، ومن حقنا أن نضع مجموعة من التساؤلات: كم هو الثمن الجماهيري والتنظيمي الذي دفعته القوى والأطر في اطار العمل السري؟ وهل كان بالفعل عملا سريا؟! كم عدد الفلسطينيين الذين ! تلوا منذ ما يزيد على اربعين عاما؟ وكم عدد الذين اعترفوا منهم على لجانهم وتشكيلاتهم؟! ما حجم معرفة السلطات بالتشكيلات القائمة؟! هل الثمن الذي تم دفعه كان كافيا لاخراج العمل السري الى السطح؟!.

انني ارى ان هناك اكذوبة تم اختراعها ومن ثم تم تصديقها، وهي مقولة «العمل

Digitized by Birzeit University Library

السري»، وهناك عدة جوانب استطيع الاجابة عليها، وهذه «تفضح» هذه المقولة وبغض النظر عن الأسباب داخلية كانت ام خارجية، ولنأخذ مثالين واضحين: ١) العملاء: كم عدد العملاء الذين تم التعرض لهم؟ هل ازداد عدد المخبرين خلال الانتفاضة ام قل؟ لماذا كان هذا العدد كبير لهذه الدرجة؟ ما دور هؤلاء في اخراج ما هو «تحت» الارض الى فوقها ٢) معرفة السلطات: هل كان العمل سريا على الجمهور ام على السلطة؟ لماذا تخفى الحقائق التي تم حفظها في ارشيفات اجهزة السلطات؟ لماذا تملك السلطات معلومات اكثر مما يملكه الجمهور؟ وبالتالي كيف يمكن ايجاد حركة جماهيرية؟ كيف يمكن بناء الثقة الجماهيرية المبنية على الاحترام؟.

هناك سبب آخر ذاتي وهو انه جرى الخلط والمطابقة بين الايديولوجية والبرامج السياسية ووسائل وأدوات تحقيق هذه البرامج، بل وجرى الخلط بين الادوات الجماهيرية في تحقيق البرامج مع الادوات غير الجماهيرية، لماذا كل هذا؟ لماذا يتم وضع العوائق امام العمل الجماهيري اذا كان هو الاساس؟! وعلى مستوى اقل، لماذا يتم الربط بشكل واضح بين العمل النقابي والعمل السياسي الى هذه الدرجة؟ وفي المقابل، كم نسبة الفاعلين في التخصصات المختلفة ممن هم مؤطرين في مقابل غير المؤطرين؟ كم نسبة الشخصيات الوطنية (بالمعنى العام للاصطلاح) من المؤطرين الى غيرهم؟

ما العمل؟

من الصعب الاجابة بدقة على هذا السؤال، لكن من السهل وضع اليد على الامراض، وهذا ما حاولته فيما سبق، لكن اود ان اضع مؤشرات للخروج من هذا المأزق، خاصة اذا كان هدفنا كفلسطينيين وفي كل الاحوال هو ترسيخ الهوية الفلسطينية والمحافظة عليها، وتجسيد هذه الهوية بشكلها الكامل من خلال الاستمرار في النضال حتى اقامة دولة، ولكن لنفترض (وهذا افتراض مقبول) أننا وضمن الواقع الحالي المحلي والعربي والعالمي لا نستطيع اقامتها، فكيف نقوم بترسيخ هذه الهوية؟! فهناك احتمال ان نحصل فقط أنيا وحتى مستقبليا على حكم ذاتي او ما هو اقل من ذلك (وهل نستطيع الآن وقف هذا التيار الجارف؟!) وربما يفرض علينا الدمج في الدولة الاسرائيلية كما جرى لفلسطيني ٤٨، فما العمل؟ ان مهمتنا في كل الاحوالي هي المحافظة على هذه الهوية حتى في اقسى الظروف، وبناء على ذلك نستطيع الخوض في تفاصيل هذا البناء والذي يجب ان يكون ديمقراطيا.

١) على الصعيد العملي والتخصصي:

حتى ننجز فيجب فصل السياسي الخالص عن التخصصات والدفع بتوحيد ولملمة المؤسسات تحت عنوان تخصصاتها الاقتصادية والاجتماعية والنسوية والثقافية ... الخ. عن طريق زج كل الفعاليات فيها، والزج هنا يعني وبالاساس اقناع المتخصصين عمليا ان هذا الاطار الجماهيري لا يقوم بخدمة او «تحت أمره» اطار سياسي ما، ولنأخذ مثال العمل الثقافي: يجب ايجاد دائرة عامة للثقافة يشترك فيها الكتاب والفنانون، ويتم انتخاب هيئة سنوية بشكل ديمقراطي وذلك بابعاد الاتفاقات والكولسات السياسية عنها، فالانتخابات يجب ان تتم على اسس برنامجية وتخضع للقدرات الادارية والابداعية، ويتحقق هنا اذا تم القيام فعلا بنشاطات جماهيرية واسعة وباتباع البرامج المقررة، وبفتح صفحات الكتابة والابداع لكل من يستطيع، وفق اعتبارات التخصص نفسه، وينطبق نفس الشيء على باقي المجالات.

٢) على صعيد الاطر السياسية:

يجب ان تخاض نقاشات واسعة وبشكل صريح حول المبرر الموضوعي لوجود هذه الحركات والاحزاب والجبهات الكثيرة العدد، ويتم بعدها وضع البرامج السياسية والآليات اللازمة لتحقيق هذه البرامج آخذين بعين الاعتبار ثلاثة قضايا رئيسية:

١- الدين والمسألة القومية هما محوران هامان واصيلان في المجتمع وبالذات الفلسطيني بسبب الظروف التي مر بها.

٢- القضية الديمقراطية هي وسيلة جماهيرية للاختيار والتأطير والفاعلية.

٣- دراسة مسألة العلنية والسرية بشكل اكثر جدية يكون اساسه العمل الجماهيري الفعال والمجدي وان تخرج النعامة أخيرا رأسها من تحت التراب فجسدها يراه «الرايح» و «الجايي»!.

٣) على صعيد الهيكل العام.

اود هنا ان اقدم اقتراحاتي على شكل تساؤلات ايضا.

١- كم من الاعضاء البرلمانيين الذين يجب ان يمثلوا هذا الشعب؟.

٢- هل يجب ان تكون النسبة العليا للاطراف السياسية على حساب الجماهير الواسعة؟.

٣- كم نسبة الاطر الجماهيرية المتخصصة في هذا البرلمان؟

أ- كم نسبة تمثيل المرأة في كل اطار وفي الاطار العام؟

ب- كم نسبة تمثيل المثقفين والأكاديميين؟

٤- كم نسبة تمثيل الاطر النقابية التحتية في المجتمع: نقابات عمالية، زراعية وطلبة ...الخ؟.

٥- كم نسبة تمثيل الداخل الى الخارج؟.

Digitized by Birzeit University Library

مناقشة لبعض الافكار التي وردت في الحوار مع المفكر كورنيليوس كاستورياديس

يسري السيفي

لقد قدم نص الحوار مع المفكر «كورنيليوس كاستورياديس» مادة غنية تحتاج للبحث والتأمل، واني متفق مع الكاتب من حيث المبدأ في الحديث عن الديمقراطية الغربية، وضرورة ايجاد بديل لها او تطويرها، واتفق مع الكاتب في استخدام التحليل النفسي لدراسة المجتمع وقصور الماركسية في هذا المجال، وحول علمنة المجتمع والاستقلال الذاتي.

ولكن هناك افكار كثيرة يطرحها الكاتب تستدعي النقاش، سأناقش بعضها ولست اعبر عن وجهة نظر ماركسية، او وجهة نظر الماركسيين وانما عن وجهة نظر ذاتية، وقد التقى فيها مع الكثير من الماركسيين.

ان كنت اشاطر الكاتب رأيه بوجود ازمة تتفاقم داخل المجتمع الرأسمالي فاني اختلف معه في اسباب حدوث الازمة، واتساءل هل يا ترى ان النظام الرأسمالي عاجز عن تحقيق تناسله البشري الطبيعي ام انه من الطبيعي ان ينتج نسلا بشريا شعاره «اربحو اكبر قدر ممكن»؟! فكل نظام ينتج تناسل بشري يتلائم مع طبيعته وهي التي تدير مؤسساته القضائية والثقافية وهذه ضمانة لوجود واستمرار النظام وتشكيل ايدولوجية الدولة وتأخذ شكل ودستور الدولة الذي يعبر عن شرعية النظام القائم وهي بشكل مباشر او غير مباشر تعبر عن مصالح الطبقة المسيطرة.

وفي اعتقادي ان المشاكل البيئية نابعة عن التطور التكنولوجي بما يحملة من غزو الفضاء وحدوث ثقب في الغلاف الغازي ومن تغيير في تركيب هذا الغلاف نتيجة للغازات التي تنتج عن الاحتراق لدى استخدام مختلف الالات.

وان كان تهور الرأسمالية يطرح المشكلة اكثر حدة فان الرأسمالية سوف تزول اما تطور التكنولوجيا ستستمر وستطرح على البشرية ليس مشاكل بيئية وحسب بل ربما تكون كونية ايضا. والبيئة تطالب الرأسمالية ان تستخدم التكنولوجيا بشكل عقلاني في تعاملها مع الطبيعة وثرواتها.

ومن هنا فان المشاكل البيئية هي في الاصل وليدة التكنولوجيا والرأسمالية تزيد من حدتها ولكن هذا ليس كافيا لاعتبار البيئة سببا رئيسيا في ازمة الرأسمالية.

لقد خلقت الرأسمالية وضعا ونظاما جديدين على الكرة الارضية منذ وجدت جميع اجزائها وجعلتها مترابطة بشكل عضوي فلم تعد الرأسمالية ضمن نطاق دولة معينة بل اصبحت رأسمالية دولية وعالمية، لقد خلقت شرخا كبيرا للبنية الاقتصادية والاجتماعية للعالم فبينما يتمتع شعوب الدول الصناعية والتي تمثل ثمن سكان الارض بمستوى معيش عال نسبيا ومرتفعا نسبيا ويحتكر الرأسماليون وسائل الانتاج والتكنولوجيا وآخر منجزات العلم فان سبع اثمان سكان الارض يعيشون في فقر مدقع وتخلف مزمن.

لقد قسمت الرأسمالية الادوار وفرضتها بالقوة العسكرية متمثلة بالاستعمار المباشر وانتهت بقوة التفوق الاقتصادي بعد ان كرست اسس التخلف لمستعمراتها سابقا وباحتكار الرأسمالية وسائل الانتاج والتكنولوجيا اصبحت مركز العالم الامر والناهي وفرضت الابوه بالقوة على العالم نفسه وجعلت من العالم محيطا وسوقا لها واطلقت عليه دول العالم الثالث او دول المحيط فماذا يمثل المحيط لها؟

انه سوق لمنتجاتها، انه مصدر موادها الخام، ونفط الخليج خير مثال على ذلك،

Digitized by Birzeit University Library

والمحيط هو مصدر رخيص للايدي العاملة، والاجور التي تدفع لعمال دول العالم الثالث لا تقارن مع تلك في الدول الصناعية، مع انه يوجد هناك قسط غير قليل من استغلالها لشعوبهم الا ان الاستغلال والنهب الواقع في المحيط، لا يقارن مع ذلك الذي في المركز وقد ابدعت الرأسمالية في استغلال الايدي العاملة واخذت تصدر مصانعها شكلا جاهزا الى تلك الدول، بحيث تشكل هذه المصانع فروعا للمركز.

اذن اصبح هناك علاقة انتاجية معادلتها هي ان المحيط هو دول العالم الثالث وهو سوق ومصدر للمواد الطبيعية والايدي العاملة وهناك المركز يحتكر التفوق الاقتصادي ممثلا بوسائل الانتاج الاساسية والتكنولوجيا والقوة العسكرية ويرى في هذا مبررا ليمتص الشعوب في عقر دارهم.

ان هذه المعادلة تمثل علاقة انتاجية فرضتها الطبقة الرأسمالية باستلاكها لوسائل الانتاج الاولية او الاساسية وبالتالي حددت فيها شكل توزيع الانتاج. وحسب هذه المعادلة كلما ازداد حجم الانتاج كلما زادت دول العالم الثالث فقرا وتخلفا وارتفع مستوى معيشة المركز وتطوره الاجتماعي اي ازداد الشرخ الاقتصادي والاجتماعي بين المركز والمحيط وان هذا الشرخ الذي يمثل شرخ بين علاقات الانتاج والقوى المنتجة الذي يمثل فيها شعوب المحيط العامل البشري لهذه القوى، وسيزداد الصراع بين المحيط والمركز الى ان تصبح هذه المعادلة او العلاقة الانتاجية غير قادرة على الاستمرار، وستكون هذه المقدمة لبروز نظام جديد يحمل علاقات انتاجية جديدة.

يقول الكاتب ان الفكر الماركسي قد مات وان المادية التاريخية لم تعد تقف على رجليها وان اولوية البنية التحتية على البنية الفوقية لا تعني شيئا ويرى موت الفكر الماركسي ومادية التاريخية، لان الفكرة الرئيسية في هذا الفكر، ان الوفرة الاقتصادية المزعومة سوف تحل المشاكل الاجتماعية والسياسية وتؤدي الى تنمية القوى المنتجة، وتمثل هذه الفكرة نزعة طوباوية وتبشيرية رديئة وتعبر عن وضع يستحيل تحقيقه عمليا.

انني أتفق مع الكاتب، ان فكرة الوفرة طوباوية تبشيرية بقدر ما كانت تجري محاولة لجعلها البديل الانى للرأسمالية او جعلها الوريث الشرعي والوحيد للرأسمالية واذا كانت هذه الفكرة تخص المستقبل البعيد فانه يجب هنا التأني والتبصر قبل الاجابة بنعم او لا. ولكن لا افهم كيف من خلال نقده لهذه الفكرة قتل الماركسية وشنق المادية التاريخية ونبش قبر ماركس.

اعتقد ان فكرة الوفرة ليست هي الفكرة الاساسية للفكر الماركسي،فالفكر الماركسي يتكون من الاشتراكية العلمية والاقتصاد السياسي والفلسفة الماركسية،وفكرة الوفرة تدخل ضمن الاشتراكية العلمية،وفي الفكر الماركسي كما في اي فكر تشكل الفلسفة الماركسية الزاوية لهذا الفكر والتي يشكل الديالكتيك نواته الاساسية والروح الحية للفكر نفسه،ولقد صاغ ماركس نظرياته الماركسية والتاريخية مستخدما الديالكتيك في معالجة وتحليل وفهم العالم مرتكزا على المنجزات العلمية والمعلومات المتوفرة في ذلك الوقت.لقد رفض ماركس المساواة بين الديالكتيك وبين بقية اجزاء الماركسية، وبيّن ان الماركسية ليست تعاليم جاهزة وخالدة.وقد تبرأ ماركس من الماركسية اذا ما اعتبر الماركسيون ان الماركسية مساوية للديالكتيك. اذن فالفكر الماركسي هو الديالكتيك الذي يشكل روح هذا الفكر مضافا اليه التعاليم الماركسية او بقية اجزاء النظرية الفكرية التي صنعت ضمن الظروف والامكانيات في عهد ماركس.فمن كان يسترشد بالتعاليم الماركسية فانها قد ضاعت ومن كان يهتدي بالديالكتيك، روح الماركسية فهو حي لا يموت. ومن الضروري هنا ان اشير الى انه وان كان بعض جوانب المادية التاريخية قد شاخت فهذا ليس مبررا لابقائها، بل يجب ان يكون حافزا لتطويرها واغنائها لانه باعتقادي ان القوانين الاساسية التي فسر فيها ماركس سلوك المجتمع البشري منذ بدايته مازالت تسري في عصر الرأسمالية،واعني هنا القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، ولا ارى في فكرة المتخيل الاجتماعي التي يطرحها الكاتب بديلا لتلك القوانين واساسا لفهم التطور التاريخي للبشرية.

يقول الكاتب «وهذه الدلالات ليست متولدة لا عن الواقع ولا عن المنطق وانما هي خلق بشري صحيح انها مشروطة ولكنها اعتباطية اساساً «وبواسطة هذه الدلالات يخلع المجتمع معنى على حياة هذه الافراد وهي التي تواجه فعاليات الكائنات البشرية وبالتالي تعطى قيم الاشياء والافعال او تخفض من قيمتها».

مفاد هذه الاقوال ان هناك الافكار البشرية التي تشكل حجر الزاوية للمجتمع وكائناته وهي توجه وتفسر سلوك الناس فيها اعتقد ان هذه الفكر يعبر عن مثالية ذاتية ترى ان الفكرة تولد الواقع او تحدده فهي ترى ان الواقع هو انعكاس للفكر وباعتقادي ان الفكر، هو انعكاس للواقع، والمتخيل الاجتماعي الذي يمثل الفكرة هو الانعكاس للواقع وان كان هنا الحديث يجري عن الافكار الدينية فهي انعكاس للواقع بشكل ومعي او خيالي اني لا ارفض فكرة المتخيل الاجتماعي في كونها تضيف معنى لحياة البشر ولا سيما عندما يكون هذا المتخيل الاجتماعي هو الدين ولكني اختلف في منشأ هذا المتخيل وفي المخالفة في دوره وجعله هو الاصل والموجه والآمر والناهي في تطور البشرية.

Digitized by Birzeit University Library

قطاع غزة والتنمية الاقتصادية

صلاح عبد الشافي / غزة

ما أن انتهت حرب الخليج، حتى تسارعت الوفود «التنموية الاجنبية» على اختلاف انواعها وأشكالها وأهدافها بالقدوم الى المناطق المحتلة. وبالرغم من تنوع طبيعة هذه الوفود (منظمات دولية، مؤسسات غير حكومية، وفود حكومية، جمعيات انسانية... الخ) الا انها جميعا هدفت وتهدف - لو علنيا على الاقل - كما يقول لسان حالها الى أمرين:

أولا: تقصي طبيعة الاوضاع الاجتماعية - الاقتصادية للشعب الفلسطيني تحت الاحتلال وخاصة الآثار المدمرة لحرب الخليج.

ثانيا: وضع توصيات محددة تمهيدا لتقديم الاموال والدعم اللازم في مجالات مختلفة اقتصادية - اجتماعية - صحية - ثقافية.. الخ من أجل احداث "تنمية"، أو رفع "مستوى المعيشة" او "اغاثة" الى أخره من تسميات اعتدنا كثيرا على سماعها في الفترة الاخيرة.

ان كثافة الوفود "التنموية" الاجنبية بحد ذاتها قضية لا تثير العجب، فحرب الخليج وضعت العالم الغربي في مأزق أخلاقي. فشعار الشرعية الدولية الذي رفعت لواءه دول التحالف المعادي للعراق، يفترض ايضا رفعه في كل مكان وزمان، ويفترض التعامل مع الشرعية كوحدة واحدة لا تتجزأ ولا تقبل الانتقائية في تطبيقها. من هنا جاءت هذه الوفود لتثير لدينا الانطباع او توهمنا على الاقل بأن هناك اهتمام وجدية لدى العالم الغربي في التخفيف من معاناة شعبنا وبأنهم لا يكيلوا الامور بمكيالين. وكما ذكرت فهذا لا يثير العجب من واقع خبرة شعبنا الطويلة والمريرة مع العالم الغربي.

على أن ما يثير العجب حقا هو رد الفعل المحلي على «الهجمة التنموية الاجنبية» فرجال الاعمال، والاكاديميون، والمثقفون، والمؤسسات، كلهم منهمكون في اعداد التقارير وعقد الجلسات والندوات وتحديد فرص الاستثمار، وكأن التنمية أصبحت هدفا بحد ذاته لنا كفلسطينيين نرزح تحت الاحتلال. وحتى لا يساء فهمي، فانا لست ضد التنمية ومحاولة تحسين البنية الاقتصادية، ولكني مع أن توضع التنمية في اطارها الصحيح لمنع «التسيب» والا سنقع بالفخ المنصوب لنا بقصد او بدون قصد.

وانا كان لا بد من استقصاء الاوضاع السائدة وخاصة بعد حرب الخليج، فان قطاع غزة يشكل نموذجا ساطعا على حجم المعاناة. وقد لاحظنا اهتماما متزايدا في

Digitized by Birzeit University Library

الفترة الاخيرة بقطاع غزة من قبل جهات اجنبية عديدة. هذا الاهتمام لا يعكس لدى العديد من هذه الجهات حرصا صادقا على تخفيف المعاناة، بقدر ما يعكس رغبة في نزع الفتيل من برميل البارود الذي يمثله قطاع غزة. فأضافة الى الاهتمام الاجنبي، هناك أيضا اهتمام اسرائيلي رسمي. فسلطة الاحتلال تدرك جيدا النتائج التي قد يترتب عليها استمرار مثل هذا الوضع في قطاع غزة. من هنا كثر الحديث عن اعفاءات ضريبية واعطاء تراخيص لمشاريع صناعية وزيادة فرص العمل.

ان مقياس الجدية لاية خطة او برنامج اقتصادي بشكل عام هو مدى خدمة هذا البرنامج لهدف الاستقلال الوطني. فهنا الهدف هو البوصلة، والسير في هذا الاتجاه يتطلب رؤية الواقع كما هو عليه وليس كما نتمنى ان يكون.

اقتصاديات القطاع... العقبات الاساسية.

لن نتطرق هنا بالتفصيل الى المشاكل الاقتصادية التي عانى ويعاني منها قطاع غزة، فقد كتب الكثير عن ذلك. وعن سياسة اسرائيل الاقتصادية تجاه غزة منذ بدء الاحتلال في عام ١٩٦٧ وحت الآن. النتيجة العملية التي يمكن ان نخرج بها من تتبعنا للتطورات الاقتصادية على مدار الاربع وعشرين سنة الماضية في قطاع غزة، هو ان اللاحاق والدمج الاقتصادي «Integration» للقطاع في الاقتصاد الاسرائيلي قد وصل الى مرحلة أصبح من الصعب التراجع عنها والتخلص منها في ظل الظروف السائدة محليا وعربيا ودوليا في الوقت الحاضر. أن الاستقلال الاقتصادي وارد في ظل الاستقلال السياسي فقط وضمن ترتيبات عربية ودولية معينة. ففي حالة اعلان اسرائيل طلاقها الاقتصادي من قطاع غزة - مع انني اشك في ذلك. فان هذا سيضعنا امام مشكلات اقتصادية لا حصر لها، اذا لم تتحمل الدول العربية والدولية مسؤولياتها تجاه مثل هذا الوضع.

ما يهمنا الآن هو اننا نعيش الان وضعا له مواصفات محددة سياسية واقتصادية، وضمن هذه المواصفات نحن مواجهون بتحدي يتمثل بوجود جهات عديدة ومتنوعة الاهداف والنوايا رصدت مبالغ معينة لصرفها على مجالات مختلفة في المناطق المحتلة وخاصة الزراعة، الصناعة، البنية التحتية والاسكان.

السؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هو كيف يمكن لنا كفلسطينيين استغلال ذلك وتكريسه لكي يخدم الهدف الاساسي في الاستقلال الوطني، ويضع حدا للكثير من الظواهر السلبية التي ترافق اية عملية تنموية، والتي بدأت تظهر اثارها لدينا مثل الارتزاق والشحدة والافساد والخ.

قبل الاجابة على ذلك لا بد من تحديد العقبات الاساسية والمشاكل الاقتصادية التي يعاني منها قطاع غزة على الصعيد الشمولي.

أولا: الاحتلال

ان خضوعنا تحت سلطة احتلال عسكرية يعني اقتصاديا بأننا لا نتحكم و/ او نسيطر على مقدراتنا وموارداتنا، وبالتالي فان الشرط الاساسي لاية خطة او حتى توجه تنموي غير متوفر. ان طرح قضية الاحتلال هي ليست هروب للامام لكي نعفي أنفسنا من مهمة ايجاد حلول معينة حتى في ظل الاحتلال، وانما فقط للتأكيد والتذكير ببديهية بدا ان الكثير منا قد بدأوا بتناسيها عند الحديث عن التنمية.

ثانيا: الايدي العاملة

يتميز قطاع غزة بكثافة سكانية عالية جدا، وفائض كبير من الايدي العاملة التي لا يمكن استيعابها محليا. وقد ازدادت هذه المشكلة سوءا بعد حرب الخليج. حيث تقلص عدد العاملين في اسرائيل، اضافة الى عودة الكثيرين من الذين تم فصلهم من أعمالهم في دول الخليج.

التقديرات المختلفة تجمع أن عدد الايدي العاملة في قطاع غزة لا يتجاوز ١١٠,٠٠٠ عامل، كان يعمل منهم ٦٠,٠٠٠ تقريبا في اسرائيل قبل حرب الخليج. أما الان فتشير التقديرات ان عدد الذين يعملون داخل الخط الاخضر لا يتجاوز الـ ٣٠,٠٠٠ عامل.

ان قطاع غزة ليس قادرا بامكانياته المحدودة على استيعاب الفائض من الايدي العاملة. وحل هذه المشكلة لن يتم الا على المدى البعيد. ان الحديث اليوم عن مشاريع لاستيعاب اليد العاملة في غزة لن تستطيع استيعاب اكثر من ١٥٪ من الفائض، هذا اذا كتب لها النجاح في ذلك.

ثالثا: البنية الاساسية

ان اي حديث عن تنمية اقتصادية حقيقية لن يكون متكاملا، اذا لم تتوفر البنية الاساسية من شبكة طرق وكهرباء واتصالات ومياه. فقطاع غزة يتميز بتخلف شديد في البنية الاساسية. من هنا فان اقامة مشاريع دون توفر بنية اساسية مناسبة يعتبر عملية منقوصة. ان تطوير البنية الاساسية لها في مهام السلطة الوطنية فقط، ومن خلالها يتم توفير شرط أساسي من شروط التنمية الاقتصادية أضف الى ذلك فان مشاريع البنية الاساسية تستوعب كم كبير من الايدي العاملة.

رابعا: السوق

Digitized by Birzeit University Library

يتميز قطاع غزة بصغر السوق المحلية وطاقة الاستيعاب المحدودة. من هنا فان التفكير بأية مشاريع متوسطة او كبيرة الحجم يجب أن يسبقها التفكير في اسواق لاستيعاب هذا المنتجات. ان بقاء مشكلة التسويق قائمة كما هي عليه الآن يجب ان يجمد التفكير باي استثمارات بأية مشاريع جديدة او توسيع مشاريع قائمة.

خامساً: المواد الخام

يعتمد اقتصاد قطاع غزة بشكل شبه كلي على استيراد المواد الخام من الخارج، وخاصة من اسرائيل او عن طريق وكلاء اسرائيليون. من هنا فان الحديث عن مشاريع اقتصادية تساهم في زيادة الاستقلالية عن الاقتصاد الاسرائيلي من دون ان يترافق ذلك مع استقلالية في الحصول على المواد الخام، ما هو الا ضرب من التضليل. فالاستقلالية الاقتصادية يجب ان تكون شمولية، لجميع مراحل الانتاج، بدءا بالحصول على المواد الخام وانتهاءا بتسويق المنتج.

سادساً: غياب البنية المصرفية والمالية

ان أي عملية تنموية اذا افتقدت الى البنية المالية والمصرفية ستكون محكومة بالفشل. وبالرغم من اقامة بعض المؤسسات الاقراضية منذ عدة سنوات والتي تحاول ان تشكل بديلا للبنوك والمؤسسات المالية المتخصصة، الا ان نظرة سريعة لما تم انجازه من قبل هذه المؤسسات على الصعيد الاقتصادي يدل على محدودية الدور الذي تلعبه.

ما تقدم، يعطينا صورة عامة لحقيقة الواقع الاقتصادي الذي يعيشه قطاع غزة.

من المؤكد أن هناك عوامل اخرى مثل سياسة الضرائب والجمارك الاحتلالية، صعوبة الحصول على تراخيص، القيود على التصدير والاستيراد والى آخره من العقبات، الا اننا نعتقد ان العوامل الستة التي تم التطرق لها اعلاه تشكل الاطار العام الذي يميز الوضع الاقتصادي في القطاع.

ان السؤال الذي يطرح نفسه انطلاقا من هذا الواقع هو، كيف يمكن المواءمة ما بين اية خطة تنموية وهذا الواقع؟ وكيف نخضع التنمية لمتطلبات شعبنا الاساسية اقتصاديا وسياسيا؟

المركزية والشمولية:

كوننا نخضع تحت الاحتلال، فان هذا يعني انتفاء أية امكانية لوجود مركزية في التخطيط التنموي الاقتصادي. فالحديث عن خطة تنموية، يشترط وجود جهة مركزية تضع هذه الخطة، وانا ما توفرت هذه الجهة، فيجب ان تتوفر لها جميع مقومات وعناصر وضع الخطة. احد هذه العناصر او المقومات هو ان تكون الجهة المركزية مسيطرة على الموارد الاقتصادية او بالحد الادنى مطلعة بشكل مفصل على هذه الموارد، لكننا ندرك تماما ان هذه الجهة المركزية غير موجودة واقامتها صعب لأسباب يعرفها الجميع وثانيا فان السيطرة على الموارد الاقتصادية مستحيلة في ظل الاحتلال. لكن هل هذا يعفينا من ايجاد البدائل ومحاولة تجاوز هذا الوضع، وهل ان القول بعدم امكانية المركزية في العمل يبرر الفوضى والتشتت السائد في العمل التنموي الاقتصادي اليوم؟.

ان تجاوز مأزق عدم امكانية مركزية التخطيط والعمل التنموي يتم تجاوزه من خلال الشمولية في التفكير والتخطيط والعمل لدى كل مؤسسة وكل جهة على حدة. فاذا كان التعدد في المؤسسات العاملة في نفس المجال شر لا بد منه - لأسباب يعرفها الجميع - فالتفكير والتخطيط الشمولي يؤدي الى عدم التعارض مع البرامج. فعلى سبيل المثال اذا كان لدينا عدة مؤسسات تعمل في مجال الاقراض فعلى كل مؤسسة عند القيام بوضع برنامجها ان تأخذ بعين الاعتبار برامج المؤسسات الاخرى سواء فيما يتعلق بالتخصص بالنسبة للقروض الاقتصادية او الشرائح الاجتماعية المستهدفة من قبل هذه المؤسسات. ان مثل هذا التصرف في العمل يؤدي الى توفير في الموارد واستخدام افضل لها، ويمنع حدوث اي نوع من التسيب او الفوضى. ولتسهيل مثل هذه العملية، فان الأمر يتطلب وجود حد ادنى من التنسيق المشترك.

فليس بالضرورة ان يستهدف هذا التنسيق وضع برامج موحدة ومتفق عليها - مع ان هذا ما نطمح له -، لكن الحد الادنى هو تبادل المعلومات، فبدون توفر المعلومات عن المؤسسات المماثلة والعاملة في نفس المجال، يصعب تجنب التعارض في البرامج.

ان الشمولية في العمل تشترط وجود وعي وطني عام، واحساس كبير بالمسؤولية وترفع عن المصالح الفئوية الضيقة.

فنظرة سريعة الى عمل الكثير من مؤسساتنا، تظهر ان العديد منهم يعملون وكأنهم الوحيدون في هذا المجال، غير مكترثين بعمل الآخرين، وكأن كل مؤسسة منهم تعيش بأنفراد وانعدام الجانبية.

فمعظم المؤسسات التنموية اليوم، وخاصة الاقتصادية منها، تعاني من ازمة مصداقية على الصعيد الشعبي، وهذا يعود للانطباع بأن الاموال تصرف في الاماكن غير المناسبة، والى الاشخاص غير المناسبين، من هنا فان تحسين الاداء من خلال العمل الشمولي سيساهم في تجاوز مأزق المصداقية.

Digitized by Birzeit University Library

فالشمولية في العمل التنموي الاقتصادي تحد الى حد كبير من اهدار الطاقات، وتضع ضوابط ذاتية لعملية التنمية الاقتصادية. اضف الى ذلك الى أن الشمولية لا تتطلب عمل بيروقراطي وتشكيل لجان وهيئات، بل انها عملية تقوم بها كل مؤسسة او جهة على حدة.

تنمية الموارد البشرية:

ان الـه تتبع لمسار العملية التنموية الاقتصادية في قطاع غزة يلاحظ ان هناك نظرة، تتلخص في ان التنمية الاقتصادية هي مشكلة رؤوس اموال، وقد زادت هذه النظرة حدة في الفترة الاخيرة، مع تدفق المعونات المالية الاجنبية من الخارج، ولسان حال هذا التوجه يقول: اعطونا رؤوس اموال وستحل المشكلة الى حد كبير.

ان مثل هذا التوجه من وجهة نظرنا غير علمي وينطوي على فهم منقوص وخاطيء للتنمية الاقتصادية، عدا انه يضع على نفسه العديد من علامات الاستفهام. فالتنمية الاقتصادية تشتمل على عدة عناصر اهمها العنصر البشري. فالانسان هو نقطة البداية ونقطة النهاية للعملية التنموية.

فكيف يعقل ان نستثمر في اي مشروع كان دون توفير الكادر المؤهل للقيام بذلك!!!! ان تنمية الموارد البشرية في عملية التنمية الاقتصادية يجب ان تشتمل على تدريب القائمين على هذه العملية وكل حسب تخصصه، حتى تضمن النجاح. واذا ما فشلت التجربة فان الاستثمار في التدريب لن يكون خسارة ابدا، بل هذا مكسب دائم ويبقى مهما تغيرت الظروف وتبدلت.

ان قضية التدريب تقودنا الى مسألة التخصص. فالتخصص يرفع من فاعلية العملية التنموية على كافة الاصعدة. بدءا بمستوى اتخاذ القرار وانتهاء بالتنفيذ الفعلي. فلا يعقل ان يقوم طبيب او محامي بالتقرير حول مشروع اقتصادي، ولا يعقل ان يقوم اقتصادي بالبت في مواصفات فنية لمشروع معين. ان التخصص هو الضمانة لسلامة اتخاذ القرار وسلامة التنفيذ.

تأسيسا على ما سبق فنحن مطالبون اليوم بتكثيف الجهود باتجاه مزيد من الاهتمام بالعنصر البشري وتطويره.

التضامن والتكافل الشعبي

كثر في الفترة الاخيرة نمط الاستجداء و «الشحتة» من الخارج ومن المؤسسات الاجنبية المختلفة. ما اخشاه هو ان نصل الى مرحلة بحيث لا نستطيع التحرك خطوة واحدة الى الامام دون تمويل خارجي اجنبي. بشكل عام فانا لست معارضا للتمويل الاجنبي اذا لم يكن مشروطا سياسيا، لكن الخطورة هو ان يصبح هذا هو النمط الوحيد الذي نعتمد عليه في التمويل لجميع المشاريع، فهناك عدد لا بأس به من المشاريع الاقتصادية الحيوية يمكن تنفيذها بتمويل محلي صرف. ولتوضيح ذلك نضرب الامثلة التالية:-

١- هناك حاجة ماسة في قطاع غزة لصنع جيد للاعلاف ومصنع لكرتون بيض الدجاج، وهناك الكثير من الافراد يخططون، لاقامة مثل هذه المشاريع، ويسعون للحصول على تمويل اجنبي خارجي لها، لكن انا اقينا نظرة سريعة سنجد ان في قطاع غزة هناك على الاقل ٦٠٠ مزرعة للدواجن، يضاف اليها عدد كبير من مزارع تربية الابقار والاغنام. فانا ساهمت كل مزرعة بمبلغ لا يتعدى ٤٠٠ دولار امريكي فسنحصل على رأس المال المطلوب لاقامة مثل هذه المصانع، وبالتالي سنكون قد حققنا هدفين، الاول وهو من خلال مساهمة اصحاب المزارع في ملكية المصنع، فسنضمن حرصهم على نوعية المنتج وعلى نجاح المصنع وتطوره لأن ذلك سيعود عليهم بالفائدة، وثانيا فان عملية المنتجات ستكون مضمونة وذلك لأن صاحب المصنع هو المستهلك بنفس الوقت.

٢- هناك حاجة لمصنع ألبان في قطاع غزة، وهناك على الاقل ثلاث اشخاص او اكثر يفكرون في اقامة مثل هذا المشروع. والسؤال هنا لماذا لا يقوم اصحاب مزارع تربية الابقار بتبني مثل هذا المشروع. مثل هذا التوجه، يوسع دائرة المستفيدين ويشكل ضمانة اكيدة للنجاح.

٣- ان اي خطة تنموية، تحتاج الى دراسات واحصائيات، مفصلة، لكي يتم التحديد الدقيق لفرص الاستثمار، ولكي يتم تجنب الارتجالية في العمل، فهناك نقص شديد في قطاع غزة في المعلومات والاحصاءات الاساسية عن الوضع الاقتصادي. فبدلا من ان تقوم مراكز الابحاث بعمل دراسات بتوكيل من جهات اجنبية، وبشروط هذه الجهات، لماذا لا تبادر المؤسسات الاقتصادية المختلفة من مصانع وشركات بتمويل ابحاث محلية. ففي ذلك منفعة متبادلة. فمن ناحية نساهم في دعم مراكز الابحاث المحلية ونحررها من عقبة تمويل ابحاثها من الجهات الاجنبية، ومن ناحية اخرى تستفيد جميع المؤسسات الاقتصادية من المعلومات المتوفرة.

ان ذكر الامثلة الثلاث السابقة هو فقط لتوضيح ما نقصده بالتضامن والتكافل الشعبي. فهناك العديد من الامثلة المشابهة. ان هذا النمط او التوجه يساهم على الصعيد الانساني بخلق جو من التضامن والتعاطف المتبادل ويزيد اواصر الترابط ما بين الناس، ويعطيهم هامش ضروري من الاستقلالية عدا عن انه يشجع روح المبادرة، على النقيض من روح السلبية والاستجداء التي بدأت تسود اوساطنا في انتظار الدعم من

Digitized by Birzeit University Library

الخارج.

ما تقدم هو مقدمة لماهية التوجه الذي علينا ان نسلكه عند التعاطي مع قضية التنمية الاقتصادية ضمن اطار الظروف السياسية السائدة اليوم.

ان الالتزام بهذه المبادىء يخلق من نفسه آلية عمل تضبط عملية التنمية الاقتصادية وتصفها في الاطار المناسب لها. فالشمولية تجنبنا الازدواجية وبالتالي الاهدار في الموارد وتنمية الموارد البشرية استثمار ومكسب مربح مهما تغيرت الظروف وتبدلت، والتضامن والتكافل الشعبي اذا تكرسا كنمط واسلوب في التعامل، يدعم استقلاليتنا واستقلالية توجهنا.

التصنيع واثره على التنمية الاقتصادية مع التطبيق على الصناعات الغذائية في قطاع غزة

عن الملتقى الفكري العربي في القدس صدرت دراسة اقتصادية للأستاذ الاقتصادي المساعد في الجامعة الاسلامية بغزة د.معين محمد رجب بالعنوان المذكور اعلاه. وتتكون الدراسة من قسمين.

وكما جاء في تقديم الدراسة يقول المؤلف:

يتناول القسم الاول منها وهو التصنيع والتنمية الاقتصادية التعرض بايجاز لكل من الصناعة وتطورها من خلال الاشارة الى الثورات الصناعية الثلاث التي حدثت في العالم منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ثم النشاط الصناعي وأهميته ومزاياه، والتصنيع وانعكاساته على التنمية الاقتصادية.

اما القسم الثاني فهو «الصناعات الغذائية في قطاع غزة» ويشمل دراسة تحليلية لهذه الصناعة باعتبارها جزءا من النشاط الصناعي التحويلي ككل، ويتفرع عن هذا القسم فصلان.

يتناول الاول منها المنشأت الصناعية من حيث: اهميتها، وعلاقتها بالنشاط الزراعي، وكذلك عدد المنشأت بهذه الصناعة، وحجم مبيعاتها واقسامها المختلفة. اضافة الى ما سبق فان هذا الفصل يتناول القوى البشرية العاملة في الصناعات التحويلية الغذائية وتطورها عبر الفترة الزمنية (١٩٧٨-١٩٨٧) ونسب مشاركتها في هذه الصناعة قياسا الى النشاط الصناعي ككل خلال نفس الفترة الزمنية، ثم يتعرض الى أجور العاملين التي تمثل عوائد هؤلاء المشتغلين مقابل الخدمات التي يقدمونها في العملية الانتاجية، مع مقارنة هذا الأجر بنظيره في الضفة الغربية بغية الكشف عن مدى وجود فوارق في هذه الاجور من عدمه، وتبرير وجود هذه الفوارق.

اما الفصل الثاني من هذا القسم فقد جرى تخصيصه للصناعات الغذائية، وآفاق التنمية الاقتصادية. وقد تضمن عرضا لانماط النمو الاقتصادي السائدة اضافة الى مساهمة الانشطة الاقتصادية في تكوين الناتج المحلي الاجمالي.

وتختم الدراسة أخيرا بخلاصة واستنتاجات عامة تتضمن الاشارة الى دور الصناعات الغذائية في التنمية ومقومات أدائها، وضرورة العمل التخطيطي الذي يعكس منظور التنمية الواقعية والممكنة بابعادها الزمنية المختلفة.

Digitized by Birzeit University Library

أضواء على مشروع التثقيف الزراعي في مركز علوم صحة البيئة / جامعة بيرزيت

نادي فراج
مركز علوم صحة البيئة / جامعة بيرزيت

يقوم مركز علوم صحة البيئة وسلامة العمل/ جامعة بيرزيت ببرنامج تثقيفي لمزارعي الاغوار، وهو الاول من نوعه في الشرق الاوسط، وذلك من اجل تعزيز الاستخدام المأمون للمبيدات الزراعية، والمساهمة في التقليل والحد من استعمال المبيدات مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة للوقاية من اخطارها، وذلك من خلال دورات تثقيفية لاكبر عدد ممكن من مزارعي الاغوار، ضمن منهاج محدد حول الاستخدام السليم للمبيدات والمخاطر التي تهدد الانسان والحيوان وتلوث الهواء والماء والتربة، كما يهدف البرنامج الى تعليم المزارع بالطرق العلمية والادارية والعملية للتوصل الى درجة فعالة في القضاء على الامراض بأسلوب اقتصادي فعال.

وقبل الدخول الى تفاصيل البرنامج نود توضيح العلاقة بين عملية التثقيف الزراعي ومركز علوم صحة البيئة في جامعة بيرزيت، ولتوضيح هذه العلاقة، لا بد من التطرق بايجاز حول اهداف المركز واهتماماته بمشاكل تلوث البيئة التي اصبحت الشغل الشاغل للحكومات والدول، حيث قامت هذه الحكومات بتشكيل اللجان والهيئات المتخصصة لمعالجة مشاكل تلوث الماء والهواء والتربة بالكيماويات والمبيدات واثرها على الانسان، وفي ظل غياب السلطة الوطنية قررت جامعة بيرزيت ان تتحمل مسؤولياتها العلمية والتاريخية، وقامت بتأسيس المركز في بداية عام ١٩٨٣، بتجهيز تكنولوجي متكامل وكفاءات علمية عالية ليتسنى له القيام بفحص ورقابة مكونات وفاعلية الادوية المصنعة محليا، واجراء التحاليل اللازمة حول صلاحية مياه الشرب.

اما في مجال المبيدات فلقد عمل المركز منذ تأسيسه على دراسة المبيدات المستعملة في الضفة والقطاع، كما قام بأبحاث ميدانية ومخبرية حول تعرض المزارعين للمبيدات اثناء عملية الرش، وابحاث اخرى عن تلوث المنتجات الزراعية والبيئة بمخلفات المبيدات، حيث اثبتت النتائج ان هناك اخطاء مهمة من قبل المزارعين في استعمال العلاجات الزراعية.

لمحة موجزة عن ابحاث المركز في مجال المبيدات والسمية

لقد ادى التزايد في استعمال المبيدات ونقلها، الى زيادة خطر تعرض البيئة والكائنات الحية بما فيها الانسان الى خطر هذه الكيماويات سواء عن طريق التنفس او الملامسة.

لقد قام كل من د. رمزي منصور وسمير ابو الحاج من مركز علوم صحة البيئة بالابحاث التالية:

١. في الاعوام ١٩٨٤ - ١٩٨٥ قام المركز بتحليل ترسبات المبيدات على المنتجات الزراعية، حيث قام بعملية جمع عشوائي لـ ٦٥ عينة من الخضار والفواكه، من الاسواق المركزية في رام الله والخليل ونابلس وجنين واريحا، بعد معرفة مصدر ومنشأ هذه المنتجات. وكانت النتائج ان ٣٦,٧٪ من المنتجات التي تم تحليلها فوق المستوى المقبول عالميا، من حيث تركيز مخلفات المبيدات مما يدل على ان المزارع

Digitized by Birzeit University Library

يجهل فترة الامان ويقوم بالقطف والتسويق قبل انتهاء الفترة.

ان مثل هذه النتائج لا بد وان ينظر اليها بجدية، حيث يهيب المركز بضرورة الاهتمام بالتثقيف والارشاد الزراعي، سيما وان الدراسات العالمية الحديثة اثبتت ان كثيرا من الامراض الخطيرة كالسرطانية مثلا، يمكن ان تنتج عن التعرض المباشر او غير المباشر للمبيدات او تناول منتجات زراعية معاملة بالمبيدات، وقد نتج عن هذا التعرض تسمم الانسان، نتيجة لتراكم جرعات صغيرة من المبيدات على فترات زمانية تبقى في جسم الانسان، وتظهر اعراض التسمم بشكل تراكمي كلما تقدم الزمن.

٢. لقد قام المركز في الاعوام ١٩٨٦ - ١٩٨٧، بدراسة حول تأثير المبيدات على انشطة بعض الانزيمات التي يفرزها الكبد، وقد استعملت في البحث حيوانات مخبرية كما استعمل مبيد Delta Methrine والذي يعتبر قليل السمية لذوات الدم الحار، وتم تحليل انشطة الانزيمات التالية:

Aniline Hydroxylase

P - Nitroanisloe demethylase

Azo reductase

Amino pyrine demetlyase

وقد اظهرت النتائج ان المبيد يزيد من نشاط عدد من هذه الانزيمات، والجدير ذكره ان زيادة نشاط هذه الانزيمات وزيادة افرازها يمكن ان يكون له تأثير صحي على المدى الطويل.

٣. في الاعوام ١٩٨٨ - ١٩٨٩، قام المركز بدراسة ميدانية ومخبرية، حول تعرض المزارعين للمبيدات الفوسفورية عضوية وخاصة مادة البودكس تعارون حيث اجريت تجارب على ٢٤ مزارع من مزارعي الاغوار، وذلك بفحص انزيم أستيل كولين استيراز Acetyl Cholinesterase في الدم وبلازما الدم، وذلك قبل عملية رش المبيد وخلال الرش، وبعد عملية الرش وقد استمرت الدراسة لمدة سنتين، حيث ظهرت النتائج التالية:

١. ان نسبة انزيم الكولين استيراز قد انخفضت، وتبين بوضوح ان المبيدات الفوسفورية هي مضادة لهذا الانزيم مما يؤدي الى عدم تحلل الاستيل كولين Aceytl choline الذي يتراكم بكميات كبيرة في انسجة الانسان والذي يسبب التسمم، حيث تشير الابحاث العالمية ان انخفاض انزيم الكولين الى نسبة ٤٠٪ تسبب صداع وغثيان وقيء ودوخة، وهذا ما يسمى بالتسمم الخفيف، اما التسمم المتوسط، والذي ينخفض مستوى الانزيم الى ٤٠-٢٠٪، فتظهر الاعراض على شكل ارتجاف في عضلات الوجه، وعدم وضوح الرؤيا وتعرق شديد، واضطرابات قلبية، اما في حالة التسمم الشديد وهو انخفاض في مستوى الانزيم الى ٠ - ٥٪ حيث تحدث اضطرابات تنفسية وتشنج وبالتالي وفاة.

٢. نسبة انخفاض الانزيم ومدة بقاءه منخفض يعتمد على الجرعة، اي مدة الرش والتعرض، كما ان عودة الانزيم الى وضعه الطبيعي يعتمد على مدة الرش.

٣. معدل مستوى الانزيم قبل الرش يرتفع في الموسم الزراعي من جراء التعرض المتكرر للمبيدات، كما ان مستوى الانزيم في الموسم الغير زراعي يقل لعدم التعرض، حيث ان الجسم يرفع مستوى الانزيم في المواسم الزراعية، حتى يمنع تسمم بسبب انخفاض الانزيم.

مما سبق يثبت بأن المزارع يتعرض للخطر بسبب تعامله مع المبيدات، وهناك اخطاء كثيرة في عملية الرش بسبب غياب ارشادات بالعربية على العبوات المستعملة.

لقد قام مركز علوم صحة البيئة بهذا البحث بالتعاون مع المركز الدولي للبحوث والتطوير I.D.R.C وقد قدمت النتائج في مؤتمر المبيدات في كندا.

علاقة صحة البيئة بالتنمية

تنصب جل جهود المؤسسات التنموية على الجانب الانتاجي والمادي في عملية التنمية، ونحن نثمن هذه الجهود حين تكون صادقة، فانتاج الخيرات المادية هو الاساس في تطور المجتمعات، ولكن لا بد من الاشارة الى ان هناك جوانب اخرى لا تقل في اهميتها عن الافاق المادية، كالنواحي الثقافية والسلوكية، فالتقدم الزراعي لا يمكن انجازه بدون وجود العامل والمزارع والفني الواعي المتدرب، فالتوعية والتدريب والتنمية لا يمكن ان تكون علاقة تضاد وصراع، بل لا بد ان تكون علاقة انسجام وتكامل، كما ان التطور الصناعي والزراعي لا يعني بالضرورة افساد البيئة، بل يجب ان تبقى هذه الارض مكانا افضل للحياة، علينا ان نستفيد من اخطاء الدول الصناعية التي انجزت التقدم الزراعي - الصناعي على حساب صحة البيئة، حيث نسمع الان اصوات الكثير من الاكاديميين واحزاب البيئة لمواجهة هذه الاخطار.

ان التغيرات الجوهرية التي ادخلها الانسان على الانظمة البيئية الزراعية بهدف زيادة الانتاج، قد فتحت المجال امام مشاكل عديدة اخذت خطورتها تزداد باضطراد، حيث برز التهديد المباشر الذي يمثله عدد كبير من الكائنات الحية، مثل الحشرات والفطريات التي دأبت على اقتسام المحاصيل الزراعية، وكانت النتيجة ان جرد الانسان سلاح المبيدات الكيماوية ضد هذه الآفات، وكان هذا السلاح فعالا في البداية، الا ان هذا الامل لم يدم طويلا. اذ سرعان ما برزت في البيئات الزراعية، وكنتيجة لاستعمال

Digitized by Birzeit University Library

المبيدات مشاكل مثيرة للقلق وآثار سلبية على التربة والماء والهواء، وبالتالي الانسان والحيوان. مما دفع العديد من مؤسسات البحث في العالم بالقيام بأبحاث بهدف التخفيف من النتائج الخطرة الناتجة على الاعتماد الكلي على الكيمياء في وسط تتحكم به القوانين البيولوجية والطبيعية.

التثقيف الزراعي

يقوم مركز علوم صحة البيئة في هذه الاثناء، وبالتعاون مع اتحاد لجان العمل الزراعي، بجهود مكثفة لانجاح هذا المشروع، حيث تم صياغة استبيانات، احدهما للمزارع والاخر لتاجر المبيدات بقصد الكشف عن أشهر المبيدات، الزراعية وكميتها. والتعرف على الاخطاء الشائعة في استعمال العلاجات الزراعية، ومع ان الاستبيان لم يستكمل بعد، حيث تم مقابلة ٣٢ تاجر و ١١٠ مزارعين فقط من مناطق مختلفة من الضفة والقطاع الا ان النتائج الاولية اظهرت ما يلي:

١. هناك اسراف شديد في استعمال العلاجات الزراعية. ففي مناطق الاغوار وجنين وطولكرم تتراوح الكمية المستعملة للدونم الواحد المزروع بالخضار بين ٤ - ٦ كغم، اما في القطاع فهي من ٤,٥ - ٧,٥ كغم للدونم الواحد، اما في الدفيئات فيرتفع الى ما معدله ٨,٥ كغم/دونم، مما يظهر ان استخدام المبيدات لا يخضع لاي ضوابط من الهيئات الزراعية، كما ان عدم تنظيم استخدام المبيدات ادى الى الاقلال من فعاليتها وتطور العديد من الحشرات والافات، لتصبح مقاومة لهذه المبيدات. وعليه فقد عمد المزارع الى استخدام المبيدات بصورة اوسع للقضاء على الافات التي تهدد محصوله، معتقدا ان زيادة المبيدات هي السبيل الوحيد للعلاج.

٢. هناك اخطاء كثيرة في تحديد كمية المواد المستعملة وطريقة الرش، وجهل واضح في تأثير المبيدات على صحة المزارع. حيث يعتقد البعض ان لديه مناعة ضد المبيدات وغالبيتهم يدخن او يأكل اثناء عملية الرش، ومعظم المزارعين لا يلتزمون بتطبيق الاحتياطات اللازمة.

٣. مخازن المبيدات غير مطابقة للمواصفات من حيث القرب من السكن، كما ان المكاتب غير منفصلة عن مخزن المبيدات، ولا يوجد شفاطات او تهوية مركزية، اضافة الى ان بعض التجار، وخاصة في القرى، يقومون بتجزئة العبوة الكبيرة في نفس المكتب وبدون لباس وقائي، كما انهم لا يضعون اي تعليمات على العبوة المجزئة، كما ان بعض التجار يقومون بتسويق علاجات بيطرية او اعلاف في نفس المخزن. والجدير ذكره ان احد قوانين نقابة المهندسين الزراعيين تنص على ضرورة الالتزام بمواصفات خزن العلاجات الزراعية، وضرورة تسويقها من قبل الخبراء الزراعيين.

٤. بالنسبة لفترة الامان فان معظم المزارعين والتجار، وحتى بعض المرشدين الزراعيين، يجهلون ماهية فترة الامان لكل علاج، والتي هي عدد الايام بين الرش والقطف، والتي تتفاوت في مدى بقائها او ثباتها على السطوح المعاملة بها. فقد تكون سريعة الاختفاء بتأثير عوامل بيئية، وقد تكون ثابتة ذو اثر باقي لأيام او اسابيع او اشهر. كما ان هناك نسبة مسموح بها علميا لكل مبيد، وهي اكبر كمية من الاثر الباقي لكل مبيد، وتختلف باختلاف المبيدات ونوع النباتات المعاملة او المرشوشة، وعليه فلقد وضعت منظمة الصحة العالمية ومنظمات دولية وحكومات اخرى تشريعات لتحديد التركيز المسموح بوجوده وهذا غير مطبق في الضفة والقطاع.

٥. بالنسبة للعلاجات المستخدمة للقضاء على الطفيليات الخارجية في الحيوانات، فقد اظهر الاستبيان بأن منطقة الخليل تستهلك سنويا ما معدله ١٠,٥ طن من مادة الهكسانسول والهكسادول ومركبات

Digitized by Birzeit University Library

اللندين الاخرى، في تغطيس الاغنام. ومن المعروف ان اللندين قليل السمية لذوات الدم الحار، ولكنه يدخل جسم الحيوان من خلال الجلد، حيث ان التعرض الجلدي والامتصاص الناجم عنه يفوقان بكثير التعرض التنفسي، كما ان الخطر الرئيسي في هذه الاحوال يكمن في ان هذه المادة تتخزن في دهن الحيوان وتتراكم بشكل متتالي، وعندما يتناول الانسان لحوم هذه الحيوانات، تنتقل هذه المادة لتتخزن في دهن الانسان، مما يؤدي الى تسمم مزمن لا يشعر به الفرد الا بعد ان يرتفع تركيز السم ارتفاعا كبيرا ويكون اكتشافه صعبا قبل ذلك.

٦. النقص الشديد في الارشاد الزراعي.

فمعظم المزارعين الذين اجابوا بانهم يحصلون على معلوماتهم من مرشدي دوائر الزراعة او مرشدي المؤسسات الزراعية الاخرى، الا ان نسبتهم قليلة لا تتجاوز ١٢٪ من عدد المزارعين الذين جرى استجوابهم.

مما سبق يظهر بوضوح اهمية تنفيذ برامج تثقيفية للمزارعين، وذلك لتعزيز الاستخدام المأمون للمبيدات والاقلال من تعرض عمال الرش والجمهور بشكل عام، فالمزارع المثقف هو المزارع الحريص الذي لا يتجاهل اي قاعدة من قواعد حفظ الصحة الشخصية.

ان دورات نمطية من التثقيف والتدريب لا بد وان تساهم في التمكن من العمل في مستوى الرعاية الصحية الاولية، وحيث تكون المعلومات الفنية المقدمة بسيطة وعملية ومتقنة الصياغة، فانها بلا شك تتيح للعمال استيعاب المفاهيم الاساسية لاستعمال المبيدات في مجال الزراعة اثناء تركيبها وتعبئتها وتخزينها ونقلها، كذلك ارشادات لتدابير الطوارىء في حالات التسمم.

اما بالنسبة لآلية تنفيذ المشروع فيتمثل بما يلي:

اولا: تم اختيار مجموعة من الصور والرسومات لعمل ملصقات وبوسترز بعضها يوضح الاستخدام الصحيح للمبيدات، والبعض الاخر للاسعافات الاولية، كي تعلق في الجمعيات التعاونية والزراعية والاسواق المركزية ومحلات بيع المواد الزراعية، كذلك الامر طباعة كتيبات من ورق مقوى مدعم بالصور تعالج الاخطاء الشائعة في استعمال المبيدات وتخزينها وطرق التخلص من العبوات الفارغة.

ثانيا: تصوير فيلم او اكثر حول طرق الرش الصحيحة. سواء اكان الرش بواسطة ماكنة رش ظهرية او بماتور يجر بالتراكتور، كما ويهدف الفيلم الى تعليم المزارع بكميات الادوية المضافة والوقت المناسب للرش وسرعة التراكتور والخطوات التي يجب ان تتبع قبل واثناء وبعد عملية الرش اضافة الى طرق صيانة الاجهزة.

ثالثا: تنفيذ دورات دراسية عملية ونظرية، في مركزين او اكثر من منطقة الاغوار لمدة ٥ - ٦ شهور بحيث يمنح المزارع شهادة من مركز علوم صحة البيئة تشير الى ان المزارع قد انهى دورة الطرق الصحيحة في استعمال المبيدات ويتضمن منهاج الدورة ما يلي:

١. اهمية العمل الثقافي والتنسيق بين المزارعين وتنظيم مكافحات مشتركة.
٢. لمحة مبسطة عن الافات واطوار حياتها.
٣. الوسائل المختلفة لمكافحة الافات الزراعية، الميكانيكية، الطبيعية والبيولوجية.
٤. المشاكل والاخطار الناجمة عن المكافحة الكيماوية وتاثيرها على صحة المزارع، المستهلك، وعلى البيئة.
٥. طرق المكافحة الكيماوية الاخرى، مثل استخدام المواد الجاذبة الجنسية والغذائية والمواد الطاردة للحشرات والمواد المسببة للعقم.
٦. لمحة عن المبيدات الفطرية والعشبية.
٧. الاسعافات الاولية للتسمم واصابات الحقل.
٨. المكافحة المتكاملة: التنسيق بين المكافحة البيولوجية والمكافحة بالوسائل

Digitized by Birzeit University Library

الزراعية بشكل تصبح معه المقاومة الطبيعية مجدية، والتقليل قدر الامكان من استعمال الكيماويات التي هي بالاساس تربية وسلوك تجعل المزارع ينصرف كحليف للطبيعة لا سيد لها. وفي هذا المجال، فان المركز، وبالتعاون مع اتحاد لجان العمل الزراعي، بصدد اعداد دراسة لزراعة ٥٠ دونم في منطقة الاغوار تكون المكافحة المتكاملة هي الاساس في مواجهة الآفات، ويكون المشروع كمشاهدة لمزارعي الاغوار. حيث سيقوم المركز بتنظيم زيارات للمزارعين من كافة المناطق الزراعية في الاغوار للمشاهدة، كما سيقوم الفنيون والمشرفون بعمل جولات ارشادية في الحقل لتعريف المزارع وتدريبه على المكافحة المتكاملة.

واخيرا ومع تزايد استعمال المبيدات فباستمرار هناك مواد كيماوية جديدة تدخل بين انواع المبيدات، كما ان الشركات المصدرة لهذه المواد غير عربية، ويهمها بالدرجة الاولى الربح التجاري بدون النظر الى اية اعتبارات اخرى، بدليل ان هناك الكثير من هذه المواد غير مستعملة في بلد المنشأ، ولكنها تصدر الى الضفة والقطاع وكافة الدول النامية، وعليه فلا بد من تضافر الجهود بين كافة المؤسسات سواء الزراعية والتعليمية والطبيعية والاقتصادية وبالتنسيق مع المؤسسات الاكاديمية الجامعية من اجل الحد من اخطار المبيدات على البيئة والانسان.

فالمؤسسات الزراعية يقع على عاتقها الاهتمام بالارشاد الزراعي وتوعية المزارع باستخدام المبيدات والاجراءات الوقائية الواجب اتباعها، وفترة الامان والفاصل الزمني الذي يسمح بعده بدخول الحقل، كذلك على نقابة المهندسين الزراعيين الاهتمام بتطبيق مواصفات بيع العلاجات الزراعية، وضرورة الضغط على الشركات الزراعية الموردة ان تضع على العبوة وباللغة العربية اسم المبيد وطرق استعماله والاخطار الصحية واعراض التسمم وطرق التخزين وطرق الوقاية.

ويقع على عاتق المؤسسات التعليمية، وخاصة في الريف، تعليم الطلاب من المراحل الابتدائية مبادىء استعمال المبيدات واعراض التسمم وطرق الاسعاف واهمية العمل التعاوني في القضاء على الآفات، سيما ان التثقف الزراعي في المحصلة هو ظاهرة حضارية تشير الى تقدم المجتمع.

ويقع ايضا على عاتق المؤسسات الطبية وخاصة العيادات العاملة في القرى الزراعية، فالطبيب والممرضة لها دور اساسي في التوعية البيئية، سيما في حالة استقبال حالات تسمم بالمبيدات، فعليه استغلال مراجعة حالات الاصابة في اسداء وتقديم النصائح وطرق الوقاية، كما يمكن عقد لقاءات مع المزارعين والاهالي لتوعيتهم وتثقيفهم، كذلك الامر يجب اجراء فحوص طبية للعمال الزراعيين دوريا للتأكد من سلامتهم، والا يسمح بانخفاض انزيم الكولين استراز اقل ٢٥ - ٣٠ وحدة دولية/ ١ملم، وفي حالة انخفاضه عن هذا المستوى يجب ابعاد العامل عن التعرض للمبيدات.

اما في المؤسسات العلمية الجامعية فيجب الاهتمام بعلم السموم من قبل التعليم العالي من خلال البحوث العلمية، وتشجيع التعليم في السموميات، بغية زيادة الوعي بهذا العلم والتخصصات المرتبطة به، وفتح فروع للدراسات العليا وتشجيع الخبرات والكفاءات العربية والفلسطينية في الخارج، ممن لهم تجربة متقدمة للعودة والافادة من خبرتهم، كل ذلك من شأنه العمل على خلق كوادر فنية تعمل على حماية المواطنين والمزارعين من اخطار المبيدات.

«الصحة للجميع عام ٢٠٠٠»

كانت منظمة الصحة العالمية وضعت شعار «الصحة للجميع في العام ٢٠٠٠» ليكون حافزا على رفع مستويات الرعاية الصحية في العالم كله. لكن المعلومات المتزايدة عن الاوضاع الصحية في العالم الثالث لا تدعو الى التفاؤل بتحقيق هذا الشعار، في الله، ليس في الموعد المأمول. وكانت مجلة «بيوشيميكا كلينيكا» (١٩٩٠/٨) نقلت عن مصادر في المنظمة ارقاما تدعو الى القلق. منها:

- ٤٦ مليون طفل رضيع يحرمون من التطعيم ضدوبا ضد امراض الاطفال الخطرة: شلل الاطفال، والكزاز (التيتانوس)، الحصبة، الخانوق، السعال الديكي، والدرن (السل).
- يموت ٢٠٨ مليون طفل كل عام نتيجة الاصابة بهذه الامراض ويزداد عدد المعوقين ٣ ملايين طفل.
- امراض الاسهال تصيب ٧٥٠ مليون طفل على الاقل كل عام، يموت منهم ٤ ملايين.
- تقضي امراض الجهاز التنفسي على ٤ ملايين طفل سنويا.
- يحمل ١٠٦ بليون شخص بكتيريا الدرن، ويصاب اليهم ١٠ ملايين حالة كل سنة، ويموت ٣ ملايين.
- الملاريا: ١٠٠ مليون حالة سنويا، حوالي نصف سكان الارض يعيشون في مناطق معرضة، البلهارسيا: ٢٠٠ مليون حالة، الامراض الجنسية: تصيب واحدا من كل ٢٠٠ مراهق ويصاب ٥ - ١٠ ملايين مصاب بفيروس الايدز سنويا.

Digitized by Birzeit University Library

جدلية الحياة والموت
في قصيدة
هنا اول البر

د. وائل ابو عرفة

...«بين كل متناقضين هناك خط فاصل، واذا كان البر نقيضا للبحر، فرمال الشاطىء هي الفاصل العيني بينهما. وعندما تطوء «سلافة» هذا الخط بقدميها، او يلوح لها من بعيد، تدرك انها ترسم خطوط حياتها الجديدة، او أنها وصلت الى نقطة الانطلاق في أول البر».

وسلافة يمكن ان تكون أي شيء. حلم جميل، أو غاية مفقودة، او حقيقة ضائعة، او نقطة مضيئة في ظلام دامس. واراها هنا طفلة بريئة تخرج من بين الامواج المتلاطمة، او تنهي رحلة التكوين داخل رحم معتم، لتطأ بقدمها اول درجة في سلم الحياة، واراها جنّية صغيرة، تأتي من اعماق البحر، تاركة وراءها كل شوائب التعاسة والشقاء، وتبشر بالحياة والمستقبل، بعد خطوتها الاولى على رمال الشاطىء:

«هنا اول البر
سالت عليه الخُطى
كأن التراب ملاذ الحنين
كأن الرمال جوىً يُشتهى
... وكانت سُلافة».

هنا اول البر، عنوان القصيدة الاولى، في مجموعة الشاعر وسيم الكردي. وهي تحمل نفس العنوان، وتضم بالاضافة اليها احد عشر قصيدة اخرى لا تقل عنها جمالا وشاعرية. ومن حسن حظي او من سوئه - لا أعرف - انني عرفت الشاعر لاول مرة من خلال هذه المجموعة، او من خلال هذه القصيدة بالذات. من حسن حظي انني تعرفت عليه من خلال قصيدة عصماء، ومن سوئه لانني لم اعرفه من قبل. وقد شد انتباهي في البداية، ذلك الاهداء الغريب:

«الى الايقاع الاول في الحركة الاخيرة». وأعترف انني في البداية لم افهم معناه. واظنني ادركت فيما بعد - إن لم اكن مخطئ - أن الحركة الاخيرة في الوصول الى البر، تنتهي بالايقاع الاول للحياة، لان الحياة ايقاعات مختلفة، إما متناقضة وإما متجانسة، يضبطها ذلك الانسان الذي يعيش صفحاتها، وربما يكون هو نفسه احد تلك الايقاعات دون ان يدري. ولعل الايقاع الاخير في هذه الصفحات هو الموت، اما كنقيض لها او كدافع لاستمراريتها، على حد تعبير الشاعر ابراهيم نصر الله: «**ولا ارغب الموت، لكنه سلمي للحياة**».

وهنا تكمن جدلية الحياة والموت كايقاعين متناقضين «اختار» الشاعر ان يهدي قصيدته للاول منهما.

ومرة اخرى شدتني مقدمة القصيدة نفسها: «محاولة في الكلام على ايقاعات سلافة وتنويعاتها». فمن خلال معايشتي للقصيدة، أظنني ادركت أن الشاعر لا يتكلم عن ايقاعات سلافة وحسب، وانما يتنفس هواءها، ويتفاعل معها الى درجة التصوف، بما يملك من قدرة على تجسيد هذه الايقاعات الحزينة تارة، والمليئة بالامل والحياة تارة اخرى، وهنا تكمن قدرة الشاعر على تطبيع العلاقة ما بين القارىء والقصيدة.

وعودة الى سلافة، حيث تستطيع ان تعتبرها ما شئت، وأن ترمز بها لما تشاء، حسب فهمك لايقاعاتها وتفاعلك معها. وقد رأيت فيها كما ذكرت، طفلة بريئة غادرت... «حضن الطفولة الى باحة للانوثة، لتسكب فيها خطاها». فتبدو بثلب سواها».

أو حورية صغيرة جاءت من اعماق البحر لتبشر بالخير والحياة: «فليها اوان "انبلاج" الزمان وفيها انفتاح الخطى اليانعة».

وسلافة ليست بمخلوق غريب، وانما هي من طينة المنتظرين لها، عادت من رحلة طويلة للبحث عن الحقيقة التي جاءت بها لتنشرها على الملأ عند اول البر، اوانها ولدت معها بعد مخاض عسير لتضعها على رمال الشاطىء الجديد، في نهاية البحر وبداية البر:

«سلافة تشرخ مرآتها
وتمسح وجه المدينة بالفاتحة
وتقرأ في موسم الحشد اياتها
وتلطف من زهوة العام
فرصتها السانحة».

ويبدأ الايقاع الاول من ايقاعات الحياة بعد الوصول الى البر،

Digitized by Birzeit University Library

وترى سلافة تتخذ لنفسها نقطة للانطلاق، تغرس اقدامها في رمال الشاطىء، وتبدأ بالتطور والنمو كما يبدأ الرضيع بعد انتهاء آلام المخاض، فتراها تخرج من اللهب نحو زهرة القرنفل، وتداعب الورود والاطفال، وتراها تزور المخيم:

«هنا اول البر

حيث تُثبت فيه سلافة اقدامها

وحيث السماء تكون السماء

وحيث الهواء يكون الهواء..».

...وقامت سلافة من لهيب الحشد،

تسكب قطرها فرحا على زهو القرنفل».

ان استمرارية سلافة ونموها على البر، هي استمرارية للحياة كنقيض للموت والهلاك، وسلافة نفسها تجمع ما بين المتناقضات. بين البراءة والطفولة وبين القوة والعنفوان كوسيلة للبقاء:

«تدقّ سلافة متراسها

تُهيءُ عند انبلاج الصباح كراريسها

وتُوقظ في رحمة النار أفراسها

تبدو كانجيل عرس

يهيءُ عند اصطفاف الصغار قناديل عشق

تلملم وجه الضياء.. وتنثر في الارض اعراسها».

ويتفاعل الشاعر مع هذه اللوحة الشعرية، وهو يعيش معها بكل احاسيسه وجوارحه متنقلا معها من الرواية الى المناجاة والمحاورة. فهو يحاور سلافة من قلبه ومن قلب القارىء الذي يجد نفسه في خضّم هذه اللوحة وكأنه صاحبها:

«يا بنت كانون الذي الهبت اصابعه

الى غسق النواس فاكتفى بالبر،

ينسجه بساطا للصغار وللحروف المرمرية».

... «نهضت اصابعك الندية في تلاع الذور موالا

يُغذ الخطو منفرطا بأرض الله،

يسكب قطرة فرحا - ويمضي ينقش الحناء نوارا، بسفر الروح، يرسم في ملاعبه حدود الابجدية».

ولعلني اجد هنالك بصمات خفية من شعر محمود درويش على النفس الشعري واللغة الشعرية عند شاعرنا وسيم الكردي، اكسبته عمقا في ابداع الصورة الشعرية، وورونقا روائيا مميزا، لا يلفي الصفة الخاصة بالشاعر نفسه. ففي قوله:

«هذا بياض الروح منفتحٌ

على جسد الخريطة وانتعاش الياسمين.

هذا بياض القلب ينثر ما تضاعف من مباهجه

على وجه المدينة واصطفاف العائدين».

هناك نفخة من الروح الشعرية لدرويش في قوله:

«والبحر ابيض.. هذي سفينتي الاخيرة.

ترسو على دمع المدينة.

شكرا للذي يحمي المدينة من رحيلي.

ليس لي باب لافتحه لفارسي الاخير.

ليس لي قلب لاخلعه على قدميك يا ولدي الصغير».

وكذلك التجانس باللفة الحوارية ومطابقتها مع روح القصيدة:

«طوفي بقنديل التوجس

واسكبي الملكوت في الحانا

ثم اسكبي قلقا يُغسّلنا

فتنتفض الضلوع على مساكنها

وتخرج من مودتها لجدران الطوائف».

وقول م. درويش:

غمسي باسمي زهورك وانثريها

فوق من يمشي على جسدي ليتسع السراي

لا تسحبيني من بقاياك، اسحبيني من يدي ومن هواي

ولا تلوميني ولومي من رآني سائرا كالعنكبوت

على خطاي».

وكذلك تلتقي جفرا في هنا اول البر بجفرا عز الدين المناصرة، فيتحدث الشاعر عن جفرا في محاورته لسلافة:

«في اول ساعات الصبح الداجيء

تنهض من بين اصابعك الحرى جفرا

ليفتح الباب وتفتح الذكرى

تملأ اطراف اصابعها بالشفق المتدرج

ما بين الساحة والمتراس».

وعلى نفس الوتيرة يتحدث المناصرة عن جفرا، التي نفخت ايضا بروحها الشعرية في قصيدة هنا اول البر:

«جفرا اذكرها في الوادي تحمل جرتها،

اذكرها تطلع في الباص وترعى الماعز

اسمر بين زُهيرات الوديان

ثغاء يملاء قلبي الآن

هنا في المنفى عشقا للموت المقبل».

تلك هي سلافة، طفلة بريئة تدق متراسها في اول البر، النقطة المضيئة في الظلام الدامس، انتعاش الروح في جسد كاد ان يفقد الحركة... ترى من تكونين يا سلافة ومن اين اتيت والى اين تذهبين؟.. اخشى على جسدك الرقيق ان تقصفه الرياح.

«بوحي سلافة وانثري خمب الكلام.

ثم امنحي الاشياء طلعتها.. ونامي في سلام».

Digitized by Birzeit University Library

هذه السلافة جديرة بأن تقرأ، وانا قرأتها وفهمتها بطريقتي، او كما اردت ان أفهمها. وليعذرني الشاعر اذا فهمتها بعكس ما اراد لها ان تفهم، او فسرتها بعكس ما اراد لها ان تفسر فهي بالنهاية لم تعد ملكا له، ولكن الامم انني قرأتها باحاسيسي قبل ان يقرأها لساني، وعشقت من خلالها سلافة، تلك الطفلة البريئة الجميلة، المولودة بعد آلام مخاض عسير لتطأ بقدميها اول البر، وهناك تدق متراسها:

«وسلافة نذخت بعظم قصيدها جسد المدينة
فاستلام نداؤها الما سيبدأ من شرايين العبيد.
اذا تكدس يوما باكياس الحديد.
هذا اوان الهر فاتسعي
كما اتسعت اماني البحر في شفة المراكب.
جذلي الامواج او تارا... ودقيها كأوتاد البقاء».

تعليقها على ما نشر في جريدة «الطليعة»، في عددها يوم الثامن من شهر آب ١٩٩١، وجريدة كل العرب والصدارة، والصحف والمجلات العبرية والعربية والاجنبية. على ما جرى في مسرح القصبة بالقدس، في اجتماع لجنة المبعدين، او توضيح ما يلي، علما بأني كنت خارج البلاد طوال شهر آب، وهذا ما أخر ردي على ما نشر في حينه:

١- منذ تأسيس لجنة المبعدين الاسرائيليين والفلسطينيين ضد الاحتلال ومن اجل حرية التعبير، في العام ١٩٨٤، وأنا اشغل منصب احد رؤسائها عن الجانب الفلسطيني، بصفتي الشخصية، وليس بصفتي السياسية، ولا دخل لأي طرف سياسي فلسطيني في المسألة، فأنا امثل المبعدين الفلسطينيين من الضفة والقطاع، الاعضاء في هذه اللجنة.

٢- استغرب اقحام «الطليعة» والحزب الشيوعي الفلسطيني في المسألة والانجرار وراء مواقف وتقولات من الطرف الآخر، لا اساس لها من الصحة.

٣- اود توضيح ما جرى باختصار شديد.

في اجتماع تحضيري جرى في مسرح القصبة، بتاريخ ١٩٩١/٧/١٢، تم الاتفاق بيني وبين اميل حبيبي، وبحضور الدكتور ابراهيم العلم، سهام داود، جورج ابراهيم، جميل الصلحوت، ديمه السمان، ربحي الشويكي وسلمان مصالحة على توسيع قاعدة اللجنة، وتوجيه الدعوة لعدد من الكتاب الفلسطينيين في الداخل، واتفق على دعوة خمسة وعشرين كاتبا بالاسم، وانيطت بي مسؤولية الاتصال بهم، وكل من حضر اجتماع ١٩٩١/٧/٢٣ كان مدعوا بناء على اتفاق مع اميل حبيبي، وانيطت مسؤولية دعوة الكتاب الاسرائيليين باميل حبيبي وسهام داود، وبناء على الاتفاق في اجتماع ١٩٩١/٧/١٢، لتوسيع قاعدة اللجنة، ووضع برنامج عمل محدد لنشاطاتها، حيث يترتب على ذلك انتخاب هيئة رئاسة جديدة بشكل «ديمقراطي - وانا اطرح ذلك وانا احد الرؤساء الثلاثة - اي انني اطالب بانهاء رئاستي ايضا، والتي استمرت سبع سنوات.

٤- لم يطلب احد تغييري او عدم انتخاب اميل حبيبي، ولم يكن هناك فيتو على احد، انما كان الامر يتعلق باجراء انتخابات لهيئة الرئاسة، بعد توسيع قاعدة اللجنة، وقد مضى على عملها سبع سنوات، وانظ ذلك ابسط قواعد البريسترويكا واشاعة الديمقراطية - التي يتغنى بها الكاتب اميل حبيبي في الآونة الاخيرة ..

ولا ادري كيف يمكن تفسير «غضب وعصبية ونرفزة» اميل حبيبي، عندما حضر المدعوون الى حد انه نقل لنا مطالبة بعض الكتاب الاسرائيليين لنا، بأنهم لن يجتمعوا بنا الا اذا ابدينا اعتذارنا على الموقف المخجل والمخزي - على حد تعبيره - الذي بدا منا اراه حرب الخليج وهؤلاء الكتاب انفسهم اصدروا بيانا يطالبون فيه كتاب العالم، بالضغط على حكوماتهم من اجل تدمير حرب الابادة التي شنت ضد شعب العراق الشقيق، فكان ردي ان على اللجنة ان تصدر بيانا تستنكر فيه ما يتعرض له الشعب الفلسطيني من قمع واضطهاد على ايدي الكويتيين وحكومتهم، اما موقفنا من حرب الخليج، فهو واضح ومبدئي، وليس هناك ما نخجل منه.

٥- كنت ولا ازال، من اكثر المتحمسين والنشيطين في اقامة حوار فلسطيني - اسرائيلي، وفق اسس الاحترام المتبادل الذي انطلقنا وقمنا عليه في البيان المشهور بمنذلي برام الله يوم ١٩٨٨/٤/١٦، ومازلت متمسكا بما وقعت عليه، ولذا فانني استغرب واستنكر محاولات التحريض والتسويف، التي وردت في الصحف العبرية، او اولئك النفر الذين انساقوا وراء هذا التحريض لغاية في نفس يعقوب.

٦- اما فيما يتعلق بحرب الخليج، فانا اولا واخرا مع شعبي الفلسطيني، وانا ايضا مع الشعب العراقي، وكنت ولا ازال، ضد الحرب برمتها، وارى فيها عدوانا على الامة العربية، وعلى الشعب العراقي وعلى الشعب الفلسطيني وقضيته الوطنية والقومية، ورغم كل تحفظاتي على طبيعة النظام العراقي، فانني مازلت وكما كنت دائما، ضد العدوان على العراق، وشعبه، وأطلق ما حييت، وما بقيت الولايات المتحدة وحلفاؤها سببا في مصائب العالم بأسره، وبضمنه شعبي الفلسطيني.

٧- بناء عليه، فانني استغرب رج (املائي الكتاب الفلسطينيين في الداخل او الحزب الشيوعي الاسرائيلي او الحزب الشيوعي الفلسطيني، او غيرهم، في هذه المسألة، فهم جميعا، لا علاقة لهم بما جرى.

٨- اخيرا، فانني ارى ان القضية برمتها، لا تستحق ما اثير حولها، ومن المؤسف حقا، ان تثير جملة من تلفيقات احدهم، هذه الزوبعة، وفي هذا الوقت بالذات.

اسعد الاسعد
رئيس الجانب الفلسطيني
للجنة المبعدين الاسرائيليين والفلسطينيين
ضد الاحتلال ومن اجل حرية التعبير
القدس ١٩٩١/٩/٣

Digitized by Birzeit University Library

معذرة... ودقيقة من فضلكم!!

المحامي: نضال طه رام الله

لست اديبا، وهذا لا يعني وبمفهوم المخالفة انني قليل الادب. ولست ناقدا ادبيا (اذ رحم الله إمرءا عرف قدر نفسه). واذا كان لا بد من الالقاب فانا لست سوى (خرمنجي ادب)، والخرمنجي (اصطلاحا)، هو الشخص الذي تستخدمه شركات السجائر في وظيفة (ذوبق)، حيث يقتصر عمله على تذوق او شم كل (طبخة تتنبة)، من اجل المحافظة على مستوى نكهتها المعهودة في افواه معشر المدخنين.

وعلى مستوى (الطبيخ الادبي)، استطيع الادعاء بأن لدي بعض مواهب صاحبنا الخرمنجي، بالقدر الذي يمكنني من التمييز بين الاطباق الادبية الشهية والدسمة وتلك الاطباق الرديئة او الفاسدة والتي قد تتسبب بالمغص والاسهال او القيئان.

بهذه المؤهلات الخرمنجية، قررت ان اقحم نفسي على مائدة صحيفة (صوت الوطن) الصادرة في قبرص، عدد ٢٣، شهر تموز، سنة ١٩٩١، كي اتذوق طبقها الاخير، او ان شئتم (العشاء الاخير)، لا سمح الله، والذي ورد تحت عنوان (صنفان من النساء المترفات)، وقد قام باعداد هذا الطبق او هذه الوجبة الدكتور (عبد الرحمن ياغي)، الذي لم يسبق لي شرف المعرفة الشخصية به.

للوهلة الاولى وحين تقع العين على هذه الوجبة فانها تستنفر الغدد اللعابية، فقد تمت منتجتها بطريقة مغرية، حيث طلي وجهها بمسحوق مهجن من الاحمر والاصفر، وزينت برسمة ناعمة توحي بأن صاحبها فنان متمكن، يعلم مسبقا اين تسير ريشته، اذ تمكن وبخطوط سهلة ومعدودة ودون ان يقيد نفسه بزمان او مكان، تمكن من رسم

صنفان من النساء المترفات

د. عبد الرحمن ياغي

صنف حسن الرزق الشاة، يستنكهن من قبل ويهتش لمضغهن لاجزاء الشاة، بهذا الجزء، ويرمي الاخر، ويتأكل كتلك سائرة على جوانبهن، وقد احسن فيها رعاية خاصة لتوسعته طاولة مستديرة خضراء، ويتشاغلن حولها ويتحدثن في مواضيعهن، وأهدافهن الكاذبة، ساعدن وساعدات كثيرا ما أخذت كل منهن الراحة مستخدمات الكرسي، ويستغرقهن طوال تلك الساعات استغراقا يأخذ بلبابين كل طرحهن، وأكثر طرق مضغهن اثناء الشاي مدروسة من خلالها، المفضيات أو الصراكيات الثالثي يتجمع بعضهن في بيت الخلاء.

وصنف آخر يستأثر أن يستأثر من مدته وقائده بالقرار، ويتجمع تتحديث كما قرأن من حكاية الناس وقدس الناس، وما وقع لناس، ولا يعتد احد انسنة في امر الحوار بل تتحدث في سطى الأصيلة، ويتألمن من ذلك ويتحدثن عن تقصيرهن في شؤون الاسنان في الحياة، وليست حديد حلة.

فما تشغله في ان الانسان حاله يرغب في التحرك، فما قدست به الصراحة في حل الحي، يحمل الثوب لديه شهية الصحارى، وتدعي في حلقة شاشكة بحاذي ويحاكي ويسري برأيا.

وأي الحق أن الصراحة في هذا المثال تبدو عند الفئة الحرية من ذاتها الخاصة، فالبي بين أحيهن بأقصة الحديثة تثير انتباه شهية الصحارى، أي أمر الشاه، وهي الوزارة في هذه القصة، وشهية الصحارى في أحداث هذه القصة، وشهية الصحارى في البيئة الاجتماعية التي تعيشها حياة هذه القصة.

إنها في مجتمع يحتاج الى أعتناء، حديث الطبقات

Digitized by Birzeit University Library

عدة وجوه نسائية معبرة، متداخلة بشكل ايقاعي جميل مع مجموعة من الايادي تطبق على الفم والاذن والعينيين، وتشكل في مجموعها لوحة من عذابات وتناقضات ومعاناة وغربة وضياع المرأة، انني اشك ان يكون صاحب هذه اللوحة قد اعدها خصيصا للوجبة التي تقدمها لنا الدكتور ياغي، واغلب الظن ان قسم المونتاج في الصحيفة هو الذي اختارها واخرجها من (ارشيفه).

ومع نهاية هذا المشهد وبداية تناول وجبة الدكتور ياغي، تبدأ مشاكل عسر الهضم، لنكتشف في النهاية بأنه طباخ غير ماهر، او انه لم يبذل الجهد الكافي لاكرام ضيوفه حسب الاصول المتبعة، فقد خلط السكر بالملح، والرز بالشعير، ونسي العظام دون لحم، وباختصار فقد كانت طبخة غير مغرية وعديمة النكهة.

لقد استعرض لنا الدكتور ياغي نوعين من النساء المترفات، غير العاملات في مجتمعنا، نوع يمضي وقته وحتى منتصف الليل في لعب الورق على الطاولة الخضراء (القمار) وتقوم على رعايته وخدمته شغالات فلبينيات او سرلنكيات، ونوع آخر من النساء المترفات، يمضين اوقاتهن في القراءة ويتناقشن فيما يقرأن في النوادي (الصالونات) وليس هدفهن من الحصول على المعرفة سوى المتعة والتسلية. ولوضع حد لحالة الترف المادي والفكري لدى هاتين الفئتين من النساء المترفات، يتطوع الدكتور ياغي بتقديم وصفتين شافيتين جامعتين لهما كعلاج لحالة الضياع واللامبالاة والاستهتار التي تعيشها مثل هذه النوعية من النساء.

الوصفة الاولى ان يقمن بقراءة قصة وردت في مجموعة الكاتب والاديب محمود شقير القصصية (ورد لدماء الانبياء)، وهذه القصة بعنوان (امرأتان) ص ٩٤، وهنا لم يكتف الدكتور ياغي بكتابة (الروشيتة) بل صرف العلاج وعلى نفقته، حين قام بسرد قصة (امرأتان) المذكورة، والتي تتلخص وقائعها، (بامرأتين تتمشيان في الشارع، واحدة (عانس) تحنق على الرجال، والاخرى حظها ضئيل من الجمال وتخشى ان يطلقها زوجها، وتمضيان معا الى السوق، وتقتربان من مبنى المحكمة، حيث تكون المفاجأة المذهلة للعانس، وللمرأة المتزوجة تحديدا، عندما ترى زوجها خارجا من باب المحكمة يلف ذارعه على خصر امرأة صبية متبرجة).

اما الوصفة الثانية والتي ستحل مشكلة النساء المترفات فتتمثل في دعوة الدكتور ياغي لهن بضرورة اقتناء المجلة الدورية التي يصدرها الاتحاد الدولي للنساء، بعنوان (نساء العالم)، والتي تصدر بعدة لغات من ضمنها العربية، وينصحهن بالاشتراك في هذه المجلة عن طريق (مكتب هيئة الامم) الموجود في عمان. وذلك كي يطلعن من خلالها على هموم النساء في العالم خارج محيطهن ليأخذن العبرة ويخرجن من عالم الترف المادي والفكري.

بعد هذا الاستعراض اود ان اتساءل واسجل ما يلي:

١) اذا كانت الكتابة تقاس قيمتها بمدى معالجتها والتزامها القضايا الانسانية الجوهرية والجادة، فان مثل هذه الحفنة من النساء المترفات، ليست اهلا بالعداد الذي سفكه قلم الدكتور ياغي على صفحة رئيسية في المجلة، ذلك لان هذه الحفنة لا تشكل ظاهرة اجتماعية تهدد بخطرها المجتمع وكيانه، وتجسيمها واعطاؤها هذه الاهمية والقلق عليها بهذا الحجم امر مبالغ فيه.

٢) وعلى فرض ان هذه الحفنة او الفئة من النساء تشكل ظاهرة اجتماعية سيئة وسلبية فان اجتثاثها وعلاجها لن يكون بهذه البساطة التي اقترحها الدكتور ياغي، والتي تتلخص في توجيه النصح بقراءة بعض الادبيات المحددة.

٣) ان القصة التي اختارها الدكتور ياغي من مجموعة الكاتب محمود شقير كي تكون نموذجا لنوع الادبيات التي يترتب على النساء المترفات قراءتها (كي تثير لديهن شهية المحاورة في امر الشوخص الواردة فيها وشهية المحاورة في احداثها وفي البيئة الاجتماعية التي انبجست عنها)، ان هذه القصة، وضمن السياق الذي وردت فيه تسيء الى الاستاذ محمود شقير، ولا تقدم له مكسبا معنويا، لان مضمونها لا يعطي الهدف الذي توخاه الدكتور ياغي، وفي يقيني ان الاستاذ محمود شقير كان سيرفض ان تكون قصته هذه نموذجا يقاس عليه او تمت استشارته مسبقا.

٤) ان الاشارة الى مجموعة الكاتب محمود شقير القصصية (ورد لدماء الانبياء) ... وذكر الدار التي صدرت عنها وعنوانها وكذلك الاشارة الى مجلة (نساء العالم) وذكر الجهة التي تصدرها وطريقة الاشتراك فيها، واقحامها بطريقة مصطنعة وغير مقنعة ضمن سياق الموضوع الذي تناوله الدكتور ياغي تجعل الامر وكأنه نوع من الدعاية الساذجة لمجموعة شقير القصصية ومجلة (نساء العالم)، واكثر من ذلك فقد يقول البعض من المعطادين في المياه المكرة بأن للدكتور ياغي مصلحة مادية (لا سمح الله) في التركيز وبشكل محدد ومفصل على هذه الادبيات من اجل ترويجها وتسويقها.

٥) اذا كان الدكتور ياغي معجبا بمجموعة الاستاذ شقير وبمجلة نساء العالم، ويرى ان من المفيد وصولها الى اكبر قطاع من القراء او القارئات، وكي يقطع الطريق امام اية تفسيرات تصدر بحسن نية او بسوء نية وقد تسيء اليه، فقد كان الاجدر به ان يفرد لكل منهما موضوعا مستقلا، بحيث يتناولهما بالنقد او العرض والتحليل، وهنا

Digitized by Birzeit University Library

عمل مشروع ومحبب ويستجيب لرغبات وطموحات القارىء، وليس الاكتفاء باشارة عارضة اليهما وبطريقة غير مقنعة كما اسلفنا.

٦) واخيرا، وعلى فرض ان الدكتور ياغي لم يخطر بباله ما ذهبنا اليه من تفسيرات وعلى فرض اننا تجنينا عليه باحكام جزافية ... فاننا نعود لنتساءل ويحق:

هل ضاقت همومنا لدرجة لم يعد امامنا شيء نكتب عنه او نعالجه او نسلط عليه الاضواء بشكل مكثف سوى هموم هذه الفئة من النساء المترفات؟! كنا نتمنى ان يكون الامر كذلك، ولكن عجز اكتافنا هذه الايام عن حمل الرأس الجاثم بينهما لكثرة الهموم التي تتصارع فيه، ينفي ذلك.

ان الكاتب الذي يكتفي برصد المشاكل من ثقب الباب، ستبقى رؤيته محدودة، لانه سيكون بعيدا عن الهموم الحقيقية لمشاكل مجتمعه وشعبه وقد تصبح كتاباته ترفا او تسلية فكرية لا اكثر.

قد اكون اطلت، وقد اكون اعطيت الموضوع اكبر من حجمه، او اكثر مما يستحق، ولكن السبب في ذلك عائد الى هاجس السؤال الذي اوسعه كثير من الكتاب والفلاسفة في العالم اجابة، وهو (لماذا نكتب ....؟).

مع المعذرة للدكتور عبد الرحمن ياغي ان كنت قد قسوت او اسأت دون قصد.

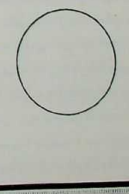

اتحاد الكتاب والدور المطلوب

أسعد الأسعد

لا نزال عند موقفنا الذي لا يتزعزع، بأن الثقافة، هي العمود الفقري والاساس الذي يبنى عليه حاضر ومستقبل أية أمة، وأننا أمة تخوض معركة ضارية، بهدف تأكيد وجودها، وتكريس دورها، فان للثقافة معنى أكثر عمقا، وأوسع دلالة.

من هنا يجب أن ننظر الى مؤسساتنا الثقافية، وعلى رأسها اتحاد الكتاب الفلسطينيين، بصفته طليعة هذه المؤسسات، وأكثرها عمقا وحساسية، ولعل ما يكتنف قضيتنا القومية والوطنية، في هذا الوقت بالذات، يدفعنا الى تناول موضوع الثقافة، والمؤسسة التي يجب ان تقوم بدورها تجاه هذه القضية الهامة، بموضوعية وأمانة.

وأنا اتحدث هنا بصفتي احد اعضاء اتحاد الكتاب، وليس بصفتي الرسمية كأمين عام، وبرأيي ان سبع سنوات مضت على تأسيس الاتحاد، تستحق التقويم، والتوقف عندها، انطلاقا من حرصنا على استمرار هذه المؤسسة في تأدية دورها الريادي والهام، وتمسكا بوحدة الحركة الادبية، انطلاقا من حرصنا على الوحدة الوطنية.

غير أن هذا الشعار، يظل خال من مضمونه الاساسي، اذا تحول الى شعار، خال من مضامينه الحقيقية، وأهمها، حرص الاتحاد على دعم وتطوير حركة ادبية، تتسم بصفات فنية راقية، بحيث تصبح عضوية الاتحاد شرفا لكل منتسب اليه، والارتقاء في احكامنا على الاديب وأدبه، الى مستوى الفن والابداع، وحسب، وهذا يتطلب الاصراع في البت بمسألة العضوية، اذ لا يعقل ان يكون هناك «٣٥٠» ثلاثمائة وخمسون كاتبا، فهذه النسبة تفوق اية نسبة في اية دولة من دول العالم، وهذا بدوره يتطلب اعادة النظر في شروط العضوية، المنصوص عليها في النظام الداخلي للاتحاد.

الامر الاخر، يتعلق بمسألة النشر، اذ يجب ان تخرج مسؤولية النشر من دائرة مسؤوليات الهيئة الادارية، ويجب أن تمكث لجنة من الاختصاصيين في الجامعات المحلية، الاعضاء في الاتحاد، على أن يكون رأي اللجنة ملزما، وليس من حق الهيئة الادارية الاعتراض على قراراتها.

أما فيما يتعلق بالهيئة الادارية، فبرأيي، يجب ان يشار في النظام الداخلي الى عدم جواز انتخاب احد من أعضاء الهيئة العامة لاكثر من دورتين - أربع سنوات - وذلك لاتاحة الفرصة أمام الطاقات الجديدة، للتعبير عن قدراتها وامكاناتها، وعدم الابقاء على الهيئة الادارية حكرا لاحد، او حتى حكرا على كوكبة معينة، تفرضها السياسة، وليس الابداع.

من ناحية ثانية، فانني اقترح انتخاب لجنة رقابة، على أن تنتخب من الهيئة العامة مباشرة، بحيث تكون مسؤولة أمام الهيئة العامة، وليس للهيئة الادارية علاقة او مسؤولية على عملها وتقدم تقريرها الى الهيئة العامة.

أخيرا، أتقدم بالاقتراح، يتعلق بتنظيم مؤتمر أدبي سنوي، بحيث يكلف اساتذة واختصاصيون في اللغة والادب والنقد، ببعض الابحاث والدراسات المحددة، ومن ثم الخروج باستخلاصات ونتائج وقرارات، فالنشاطات الادبية، من مناقشات دورية للاعمال الادبية المنشورة، التي يقوم بها الاتحاد، تشكل جانبا واحدا لا يكفي بحد ذاته، لتطوير العملية الابداعية، خصوصا، وأن الاتحاد، لا يقوم بتسجيل وقائع هذه الندوات ونشرها، وهذا بدوره يدفعني الى تقديم اقتراح بنشر فصلية جادة، تتضمن النقاشات الادبية والنقدية، بالاضافة الى بعض الاعمال الادبية المتميزة، شرط أن تخضع هذه الفصلية للتحكيم.

Digitized by Birzeit University Library

(٤)

فن الشرق الاوسط والاقصى

فاطمة المحب

كنت كتبت في ما سبق عن الفن وتطوره في عصور مختلفة وأقطار مختلفة واني هنا سأتحدث عن فن الشرق الاوسط والشرق الاقصى، وسأبدأ بالحديث عن منطقة الشرق الاوسط عن روسيا مع عودة الى الهند وبلاد الفرس.

روسيا:

دخلت الديانة المسيحية الى روسيا ٩٨٩ ميلادية فكان دخولها متأخرا عن باقي دول اوروبا، وهكذا اصبحت الديانة المسيحية هي الرسمية للدولة، فأخذوا في بناء الكنائس في عدة مدن من روسيا اولها موسكو وكان البناء على النمط البيزنطي فقد احبوه، وبقي هو النمط الوحيد المفضل في بلادهم، ولهذه الكنائس قباب فريدة من نوعها في شكلها.

انه في ١٢٢٣ ميلادية قامت حروب المغول متجهين من الشرق. من جهة الصين الى الغرب بقيادة جنكيز خان، وهكذا في ١٢٤٢ سقطت موسكو وكل روسيا في ايدي المغول. كان المغول الشرقيون بوذيين، وكان الغربيون مسلمين، وبذلك دخل الدين الاسلامي الى مناطق جنوب روسيا، وللآن هذه الدول الاسلامية داخلة في الاتحاد السوفييتي الحالي، كما انه دخل الى تلك

كنيسة بيتر وبول في روسيا

Digitized by Birzeit University Library

البلاد الفن الصيني والهندي والاسلامي الفارسي - دام احتلال المغول لهم لمدة قرنين ثم تحررت روسيا، وحكمها قياصرة الروس في القرن الخامس عشر الميلادي فكان مذهبهم هو المسيحي الارثوذكسي وانفصلت كنيستهم عن الكنيسة الغربية.

وهكذا استمروا في بناء الكنائس في مختلف مدنهم ومن اهمها كتدرائية الكرملين، وكانوا يحضرون الفنانين الايطاليين للعمل عندهم ولكن على النمط البيزنطي، انهم لم يدخلوا التماثيل الى كنائسهم تماما كما كان يفعل الاقباط في مصر.

عندما حكم روسيا الامبراطور بطرس الاكبر سافر سنة ١٦٩٧ الى المانيا وهولندا وانجلترا، ولقد كان معاصرا للملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وقد احب اوروبا واخذ من مدنيتها، وافتتح في بلاده عدة مدارس لاتينية، وهكذا فقد تقدم الفن الروسي في عصره، ثم انه مع الزمن تطورت الامور ودخلت الشيوعية الى بلادهم ولكن للغرابة فانه في هذا الصيف من ١٩٩١ نرى تقهقر الشيوعيين ومرة ثانية انفتاح روسيا على الغرب.

الهند

حضارة الهند عريقة وقديمة منذ سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وطبيعتها جبلية، ولقد عرفوا الكتابة بحروف الهجاء منذ قديم الزمان، ديانتهم البوذية والبرهمية. بدأت البوذية شمال الهند في القرن السابع قبل الميلاد، لقد بشر بها بوذا وصار له اتباع كثيرون في شمال الهند، ولما اعتنق الملك اسوكا هذه الديانة سنة ٢٧٢ قبل الميلاد، اصبحت ديانة الدولة الرسمية، واقيمت عدة معابد في مختلف المدن الهندية، ولكن مع الوقت انتشرت الديانة البوذية في الصين والهند الصينية وكوريا واليابان وغيرها، اما في الهند فقد تغلبت البرهمية على البوذية التي ضعفت في الهند. والبرهمية تؤمن بتناسخ الارواح ومكونة من عدة اساطير وعدة آلهة وانتشرت في جنوب الهند بشكل خاص وهكذا كثرت معابدها في عدة مدن، وهم عادة يبنونها من الحجارة ويزخرفونها ويكثرون من الاعمدة ومن التماثيل، أما البوذية فعادة تنحت في الجبال، والتماثيل الهندية فيها كثير من الحركة وكذلك اسلوبها زخرفي.

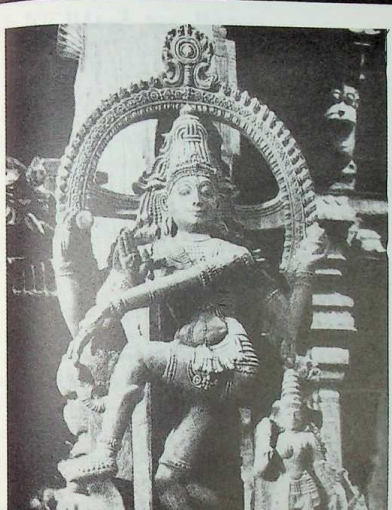

الآلهة شيفا في الهند للحياة والفناء

دخول الاسلام الى الهند

مع ان الديانة البوذية وخاصة الديانة البرهمية كانت سائدة في الهند، غير انه

Digitized by Birzeit University Library

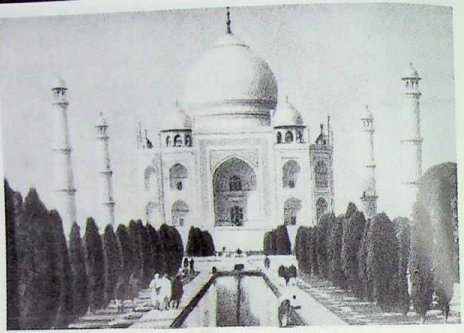

جامع تاج محل بناه ملك الهند شاه جيهان سنة ١٦٣٠

بدخول المغول المسلمين اليها في اوائل القرن الثالث عشر للميلاد، قد ادخلوا الديانة الاسلامية وبذلك ضعفت البرهمية امام قوة الاسلام، لقد اخذوا في بناء المساجد في مختلف مدن الهند، وان اول امبراطورية اسلامية في الهند بدأت في القرن الثالث عشر للميلاد، وكانت مكونة من خلفاء جنكيز خان المغولي، لقد قاموا بتحطيم تماثيل البوذية والبرهمية كما حطموا معابدهم، ولكن استفادوا من اعمدتها في بناء مساجدهم التي كانت رائعة ويذكر اسم الله دوما من مآذنها. كان الطراز فيها خليط من الهندي والفارسي، مثل جامع احمد أباد، ومن أهم ملوكهم شاه جيهان الذي بنى جامع تاج محال في اكرا التي كانت هي عاصمة الهند أيام المغول، كانت ايامه ايام ازدهار، تولى الحكم من سنة ١٦٢٨ الى سنة ١٦٥٨ ميلادية، وقد احضر لبناء تاج محل المهندسين والفنانين من مختلف انحاء العالم وتم بناؤه سنة ١٦٣٠ ميلادية فكان تحفة عالمية رائعة لقد تقدم الفن كثيرا في الهند، ولكن مع الايام سقطت الدولة في ايدي الانجليز، ثم منذ زمن قريب نالت استقلالها والهند حاليا دولة غير اسلامية لكن فيها مسلمين، اما الباكستان فاسلامية.

بلاد فارس

بلاد فارس التي تسمى حاليا ايران هي

عريقة وحضارتها قديمة، وفي العهد الوثني منذ قبل الميلاد. كانوا يعبدون النور ويمثلونه في ضوء النار التي يشعلونها في معابدهم، ولذلك لم يكن هنالك لزوم الى صنع التماثيل فلم تكن موجودة في ديانتهم، عرفوا الكتابة وكان لهم سيادة في المنطقة لمدة طويلة، بنوا القصور وزخرفوها بالقاشاني والزخارف الفنية الجميلة وفنهم مشهور منذ قديم الزمان.

منذ اوائل القرن الثالث عشر للميلاد دخل ايضا المغول اليها وبذلك دخل الاسلام اليها ولذكائهم عرفوا انه هو الدين الحق، اخذوا في بناء المساجد الرائعة وزخرفوها وخاصة بالخط العربي الجميل الرائع لكتابة الآيات القرآنية المذهبة داخل المساجد، لقد حكم خلفاء جانكيز خان بلاد فارس واحتضنوا الاسلام. من أهم جوامعهم الجامع الازرق في تبريز وهنالك غيره الكثير، مآذنهم رشيقة طويلة جميلة، وقد اشتهرت عندهم صناعات فنية كثيرة مثل صنع الاواني المعدنية والخزف والسجاد والتحف والمخطوطات والرسم الزخرفي.

بلاد الشرق الاقصى

الصين:

بلاد الصين حضارتها قديمة ومن قبل الميلاد، ولكن حضارة الفراعنة اقدم منها، الصينيون من الجنس المغولي، وقد بنوا السور العظيم حول حدودهم قبل الميلاد. حكمها عدة اسر كانت ديانتهم القديمة تقدس الموجودات السماوية مثل الشمس والقمر والنجوم والسماء، وهنا اتذكر الايات التالية من القرآن الكريم من سورة الانعام «وكذلك نُري ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا فقال هذا ربي، فلما أفل قال لا احب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال

Digitized by Birzeit University Library

هذا ربي، فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون، اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما انا من المشركين» صدق الله العظيم، واني ارجع واقول فعلى كل حال هم احرار هؤلاء الصينيون في ما يعبدون. هم يعتبرون الملك ينوب عن الآلهة السماوية على الارض ويسمونه ابن السماء. ظهرت عندهم الديانة الكونفوشيوسية في القرن السادس قبل الميلاد، فاستعملوا شاراتها في اعمال الفن، ثم تلا ذلك ظهور الديانة البوذية عندهم وتعلم ان هذه الديانة اصلها من شمال الهند، وقد تفلبت وانتشرت في الصين ومن شاراتها الصليب المعقوف اي هو مثل صليب النازية الالمانية ايام هتلر، لديهم نوع من المعابد يسمى باجودا ويعني بيت الصنم - تعرضوا ايضا لفزوات المغول. لقد عرفوا الكتابة من قبل الميلاد وكتابتهم

فن صيني مزهرية مرخرفة

تشبه الرسم وهي ليست حروف هجاء بل هي صور ورموز كثيرة العدد وصعبة ولكنهم تعودوا عليها، عرفوا البوصلة المغناطيسية وعرفوا عمل العربات ذات العجلات وكذلك بناء السفن، عرفوا الصلصال الذي يصنع بواسطة الدولاب، عرفوا صناعة المعادن والتحف والزخرفة، وعمل نوع من الاجراس له رنين موسيقي جميل، كانوا يبنون بيوتهم من الخشب فصاروا يبنونها ويبنون معابدهم من الحجر ويكثرون من نحت التماثيل لتوضع في المعابد، وقد اهتموا كثيرا بتمثال بوذا - وقد تأثروا قليلا بفن الهند - اخترعوا فرشاة الرسم، وقد امتهوا بالرسم كثيرا، وكانوا منذ قديم الزمان يرسمون ويكتبون على الحرير قبل اكتشاف الورق الذي عرفوه في القرن الخامس عشر. وبعد هذا صاروا يرسمون على الورق بالحبر الصيني الاسود واحيانا يلونون الرسم، والفنان الصيني يرسم المواضيع من ناكرته، رسموا مناظر الطبيعة وفيها السحب والبحر والامواج، والشلالات والاشجار المزهرة وغير ذلك من جمال، لقد حمل التقدم عندهم في الرسم منذ القرن الحادي عشر الميلادي، لكنهم لا يعرفون المنظور اي اظهار الابعاد، ولا الظل والنور، تعلموا الرسم بالألوان على الحائط، وعرفوا نوع من الطباعة بواسطة الحفر على الخشب لكي ينشروا الفن عند الناس، وكذلك لديهم صناعات فنية مشهورة من القاشاني والمسمى بالعيني وزخرفة القماش والتحف المعدنية والى غير ذلك وهم يقدرون الفنان كثيرا ويفتخرون بأن احد اباطرتهم كان رساما ماهرا، ويدونون تاريخ الفن واسماء الفنانين عندهم.

اليابان:

اليابان بلاد الشمس المشرقة هي مجموعة من الجزر شمال شرق قارة آسيا وطبيعتها بركانية تكثر فيها الزلازل، وسكانها من الجنس المغولي، ولقد تأثر الفن والثقافة وكل شيء عندهم بالصين نظرا لحكم الجوار وايضا لان الصين سبقت اليابان الى الحضارة بقرون طويلة من الزمن.

كوريا كانت وساطة نقل الثقافة والفن من الصين الى اليابان التي يحكمها الملك ويسمى الميكادو عندهم، وكذلك لقبه ابن السماء مثل لقب ملوك الصين. دخلت اليهم الديانة البوذية عندما جاءهم بعض القس البوذيين من كوريا، فاصبحت الديانة الرسمية لليابان واخذوا في بناء المعابد في مختلف مدنهم على قواعد العمارة البوذية، وعادة تماثيل بوذا تنحت من الخشب ثم تطلى بالمعدن وذلك مثل تمثال بوذا الكبير في كوريا والذي صنع سنة ١٧٤٨ ميلادية، اما كتابتهم فهي تشبه الصينية في أنها تتكون من صور ورموز كثيرة العدد جدا، وهي تكتب على طريقة الرسم وفيها جمال ومهارة مع انها صعبة. بيوتهم يبنونها من الخشب ولكنها جميلة وخاصة من الداخل، وما يحيطها من الخارج من حدائق وزهور، وهم يبنونها كذلك خوفا من الزلازل، وقد تعلموا بناء هذه البيوت من الصينيين. في اليابان كثيرون اعتنقوا الديانة المسيحية منذ القرن السادس عشر الميلادي اذ بلغ عددهم في ذلك القرن حوالي المليون وطبعا مع الايام ازداد عددهم كثيرا، مؤخرا اجروا تعديلا على الديانة البوذية، كالتعديل البروتستنتي في المسيحية، وهكذا اصبحت ديانتهم البوذية المتجددة تشبه كثيرا الديانة المسيحية من عدة وجوه وخاصة في المبادىء والقيم الانسانية. منذ القرن السادس عشر الميلادي صار بينهم وبين البرتغال علاقات تجارية، وتبادل سفراء مع مدريد وكذلك اتصال مع البابا، اما الرسم

Digitized by Birzeit University Library

رسم ياباني منظر طبيعي ومعه جسر عليه شخصان

فقد بدأ الفنانون الصينيون في بلاد اليابان، ثم اصبح لديهم فنانون محليون تعرفوا على الصينيين - تقدم الفن عندهم منذ القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي صاروا يرسمون المناظر الجميلة والمواضيع المختلفة في القرن السابع عشر الميلادي اتجهوا نحو الواقعية في الرسم ونحو الطبيعة، تقدمت عندهم فنون اخرى زخرفية مثل طباعة الاقمشة، وصنع التحف المعدنية والاواني المعدنية المزخرفة، وكذلك عمل الميني مثل المحون والفناجين والمزهريات وغيرها المرسومة والملونة وكذلك قطع الاثاث الخفيفة المزخرفة برسوم ملونة جميلة. وقد استمدوا وحداتهم الزخرفية من الطبيعة مثل السحب والجبال والشلالات والجسور والترع والرياض والاشجار المزهرة والكائنات الحية مثل الطيور والفراشات والاسماك الملونة وغير ذلك، هذا عدا عن الزخارف النباتية المتحورة والزخارف الهندسية.

لقد تقدم فن الرسم كثيرا عندهم وادخلوه الى مناهجهم المدرسية، وكذلك يشتركون في المعارض الدولية ويشجعون الفن والفنانين كثيرا وذلك منذ القرن التاسع عشر، ولهم طريقة خاصة في طباعة رسومهم وذلك بالحفر على الخشب وقد لفت نظر الغرب اليهم، ويعتبرون الفن الياباني حاليا من الفنون العالمية.

هنود امريكا

هؤلاء ليسوا هنودا وتسميتهم جاءت بالخطأ لأن كريستوفر كولومبوس في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي عندما ابحر من سواحل اسبانيا الى الغرب ليبرهن ان الدنيا كروية الشكل وعندها وصل الى جزر البهاما الى الشرق الجنوبي من فلوريدا الاميركية الآن، ظن نفسه وصل الى جزر الهند الموجودة في قارة آسيا ولكن فيما بعد عرف هو ومن تبعه من المكتشفين انهم في عالم جديد وقارة جديدة لم تكن معروفة للعالم القديم عندنا من قبل.

واني في موضوعي هذا اشمل هؤلاء الهنود الحمر مع جماعة الشرق الاقصى لانه ثبت انهم من اصل مغولي جاءوا قبل قرون عديدة من جهة اليابان الى الاراضي الاميركية وذلك لأن المسافات بين القارات قريبة من جهة الشمال، فلعلهم ذهبوا في البحر شرقا من جزر اليابان فوجدوا نفسهم على الشاطىء الغربي لامريكا الشمالية. وهكذا من هناك مع الزمن تكاثروا وتفرقوا في عدة جهات من الاميركيتين الشمالية والجنوبية، لقد كان هنالك في قديم الزمان ارتباط بين اليابان وغرب امريكا، لقد وجد المكتشفون الاوروبيون حضارة في بلاد المكسيك الاصلية، وجدوا دولة ومدن ويعرفون الكتابة ولهم ديانة تشبه ما في الصين واليابان اي كانت تعبد الموجودات السماوية ويعبدون اجدادهم، ووجدوا معابد واهرامات ولكنها ليست قبورا مثل اهرامات مصر ولكنها للعبادة، وكانوا يعرفون المعادن ويصنعون الفخار على الدولاب. ووجدوهم يصنعون غليونا من الخشب للسجائر وهي لم تكن معروفة لدينا وتعلمنا شرب السجائر منهم وللأسف، كانوا احيانا يرسمون على جدران هياكلهم، وجدت عندهم مخطوطات مكتوبة بلفتهم على جلد الغزال الرقيق، وهنالك دقة في فنهم، عرفوا صياغة الذهب والفضة وغير ذلك من مظاهر التقدم وهنالك غير المكسيك توجد دولة البيرو القديمة للهنود الحمر وهي تقع على الشاطىء الغربي لامريكا الجنوبية وشمالا منها تقع الاكوادور ثم كولومبيا في امريكا الجنوبية على الساحل الغربي ايضا. وقد وجد المكتشفون فيها حضارة كبيرة، والبيرو يظهر انها كانت امبراطورية ويحكمها ملوك الانكا توسعت في القرن الرابع عشر للميلاد اي قبل اكتشاف الاميركيتين، كان لهم ديانة خاصة وآلهة، مبانيهم وهياكلهم من الحجر، دخل اليهم الاسبان وحكموهم لفترة.

لقد وجد المكتشفون من الحفريات على

Digitized by Birzeit University Library

ندرا علي

شريط جديد لفرقة البراعم الغنائية

شط العرب يما لونه بلون الدم
دولة ورا دولة عالم علينا التم
هالنفط يا يما لعنة علينا وهم

هذه بعض كلمات اغنية «عيني لو يدرون» التي كتبها الشاعر اسعد الاسعد وقامت بتلحينها وتوزيعها فرقة «البراعم»، التي اصدرت مؤخرا شريطها الغنائي الجديد، الذي يحمل عنوان «ندر علي».

يضم الشريط الجديد ست اغان، كتب كلماتها الشعراء: اسعد الاسعد واحمد فؤاد نجم وجميل المكحل، وجميعها من تلحين وتوزيع الفرقة.

ومما يذكر ان فرقة البراعم تأسست عام ١٩٨٥ من مجموعة من الفنانين الهواة، الذين اعتمدوا على مجهوداتهم الخاصة، واتجهوا في البداية الى الغناء في الحفلات والمناسبات الخاصة والعامة (اعراس، حفلات جماهيرية عامة، مهرجانات). واستطاعت الفرقة بجهودها توفير الحد الادنى من الاجهزة لمواصلة عملها، دون ان تعتمد الاحتراف.

واسهمت التغيرات التي شهدتها المناطق المحتلة في السنوات الاربع الاخيرة في تحول الفرقة نحو طابع غنائي جديد، انعكس في شريطها الاول، باعتمادها الكلمة الملتزمة واللحن المحلي، الذي يراعي ضرورة الارتقاء بمستوى الاغنية المحلية دون ان تفقد صلتها بالقاعدة العريضة من جمهورها، وعن طريق الدمج المبدع والمتميز للالات الشرقية والغربية.

ويسجل لهذه الفرقة انها استطاعت انجاز العمل الاساسي في هذا الشريط خلال حرب الخليج في غرفة محكمة الاغلاق، وسط حظر التجول وصافرات الانذار. وهذا ينعكس في الشريط كلمة ولحنا واداء. ونعرض فيما يلي مقتطفات من كلمات بعض الاغاني التي ضمها الشريط:

اغنية «هدايا صغيرة»
- كلمات الشاعر اسعد الاسعد

احدق في الظلمة ابحث عن خيط الشمس
احرق اعصابي اسأل عن مطلع فجر

من اغنية الممنوعات
- كلمات الشاعر احمد فؤاد نجم

حنفني ودايما حنفني
ونبشر بالخير ونعني
ونلف الدنيا الدوارة
على صوت النفعة الصدارة

اغنية «حتى نرى ازهاركم»
- كلمات الشاعر جميل المكحل

حتى يصافح مرة ابناؤنا ابناءكم
فلتدركوا ان الذي في ارضنا انسان
ولتشهدوا ان التي يحيا بها
هي مثل كل بلادكم
هي مثلها لحنينكم لحنينه اوطان

أحد التماثيل العديدة التي وجدوها على الساحل الغربي من اكوادور في امريكا الجنوبية وهو يشبه فن اليابان وهو يشبه جدا تمثال بوذا الجالس

الساحل الغربي ادوات وتحف واشياء من الصلصال من فحصها تبين انها قديمة جدا، وهي تشبه تماما ما هو موجود في بعض جزر اليابان في جزيرة كيوشا وبعض الذي وجدوه في شواطىء الاكوادور وجنوبا منها البيرو كان مثل تمثال بوذا الجالس، فانه لبوذا تماثيل تقليدية اما واقفا او جالسا، وهذا يدل على العلاقة بينهم وبين اليابان من قديم الزمان وان من اليابان اجدادهم هم نزحوا قديما الى امريكا، ولهم فن يلفت النظر اليهم.

Digitized by Birzeit University Library

المسرح في قطاع غزة

كامل الباشا / القدس

يراودني احساس مزعج منذ اللحظة الاولى التي امسكت بها القلم، احساس يرافقني كلما شرعت في كتابة مقاله تتناول المسرح والمسرحيين داخل الارض المحتلة، وذلك ناتج بالمقام الاول عن تخوفي الشديد من أن ما اكتبه سأقرأه، ومن انه لن يترك اي اثر ولن يساعد في تغيير المستحيل الذي نعيشه والناتج ليس فقط عن وجود الاحتلال، بل وايضا عن عدم مبالاة مؤسساتنا بأهمية ما نكتبه ونركز عليه دوما فيما يتعلق بالثقافة الفلسطينية ودورها الفاعل في حياة شعبنا، وضرورة اعطائها الاهتمام اللائق والمناسب على مستوى الدعم المادي والمعنوي ضمن استراتيجية ممنهجة تأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة والضغوطات النفسية التي نعاني منها على كافة المستويات.

وان ما يزيد المي وانزعاجي هذه المرة هو اهمية الموضوع وضرورة الاسراع في ايجاد كافة الوسائل والسبل لمساعدة زملائي المسرحيين في قطاع غزة على تجاوز بعض العراقيل التي تقف في طريق تطورهم وتشكل حاجزا يمنعهم من ممارسة واجبهم.

*****

رغم الحصار المفروض على القطاع إلا انك تشعر بالحياة تتدفق في اوصاله، في كل شارع وزقاق تدخله تستطيع ان ترى البسمة الممزوجة بالالم والتوق الى الحياة، حياة افضل ينعم فيها الناس بكافة المناهج، وتستطيع ان تقرأ على الوجوه جملة مميزة تقول: نحن نناضل كي نحيا لا كي نموت؛ نريد أدبا، وفنا، مسرحا، غناءا وافراحا تعدل كفة ميزان حزننا وألمنا.

من أجل ذلك كان لا بد للمسرحيين من المبادرة علهم ينجحون ولو بشكل جزئي في تعديل تلك الكفة وتغطية مساحة ولو كانت بسيطة في خارطة البؤس وملئها بالبهجة والجمال في محاولة للوصول الى الجمهور داخل المخيمات او المستشفيات او بمعيات والمدارس او أي مكان.

في القطاع ثلاث فرق مسرحية تتنافس فيما بيها في تقديم الاعمال مسرحية، وبتوجه صادق يهدف الى تشكيل نواة حركة مسرحية ناشطة وفاعلة على الرغم من كافة المعوقات التي يعرفها كل مهتم بالحركة المسرحية الفلسطينية.

هذه الفرق تنشط حاليا في تقديم عروضها المسرحية في كافة انحاء القطاع وهي:-

اولا - فرقة حناضل (جمع حنظلة)

مسرحية - الو ... الشيخ بسام عالخط

تأليف واخراج: سعيد عيد

تمثيل: سعيد عيد، يسري المغاري، نفين صقر، انور مطر.

ثانيا: فرقة الامل، للفن والمسرح

مسرحية - المحسوم

تأليف: نبيل ساق الله

اخراج: صائب السقا

تمثيل: مصطفى البنيه، ايمن ابو سيدو، صائب السقا ونبيل ساق الله.

ثالثا: فرقة الجنوب

مسرحية: الصفقة

تأليف: غسان خير الدين

تمثيل: جمال الرزي، عبد الحميد الخرطي، مصطفى البنيه، لينا وهبه وعلاء طافش.

*****

لن أحاول هنا الدخول في متاهة التأريخ لهذه الفرق والحديث عن ارهاصات تكونها او مشاكلها، ولكنني اود طرح مجموعة من التساؤلات الضرورية جدا وفي هذه المرحلة بالذات: كيف نستطيع ضمان استمرار نشاط هذه الفرق حتى تصل الى مرحلة الفرز التي تقرر اهلية اعضائها للعمل في الحركة المسرحية؟ هل يتوجب علينا تجاهل هذه الفرق وعدم احتضانها بحجة انها دون المستوى اللائق؟ هل نغلق اعيننا عما يدور حولنا من احداث ونقول: وما حاجتنا

Digitized by Birzeit University Library

للمسرح؟ هل نترك هذا الجنين الرائع ينمو وحيدا منفردا في العراء او نقوم باحتضانه ودعمه بكافة امكاناتنا؟ هل ندير ظهورنا لهؤلاء الفنانين ونتجاهل حاجتهم للدورات الفنية ام نسعى الى تطويرهم وتوفير البعثات واماكن العروض وفرص الانتشار؟.

تساؤلات كثيرة واخرى غيرها لا بد لنا من طرحها على المستوى الرسمي والشعبي، ولا بد ان نجد لها اجابة واضحة وصريحة، وبناءا على تلك الاجابة نستطيع تجديد استراتيجيتنا في التعامل مع المسرح في الارض المحتلة بشكل عام وفي القطاع بشكل خاص. امتقد ان الاجابة الواعية على جميع تلك التساؤلات تنقلنا من مرحلة الجمود الفكري العقيم الى الفعل المؤثر والمنتج بغية التقدم ولو خطوة واحدة الى الامام.

ان مشكلة المشاكل في هذه المرحلة تتمثل في توفير المكان الملائم لاجراء التدريبات وتقديم العروض، وعلى الرغم من التجاوب المشكور والجهد المثمر الذي تقوم به إدارة جمعية الشبان المسيحية في هذا المجال الا ان المكان المخصص لهذه الفرق لا يضمن ادنى المتطلبات اللازمة لانتاج عمل مسرحي متكامل، فضيق المكان، وانعدام الاجهزة الضرورية، يجعل من المتعذر تطوير العمل الفني الى المستوى اللائق ويجعل ضرورة البحث عن مكان اكثر ملاءمة موضوع بالغ الاهمية.

ولكن !! ....

لماذا البحث والمكان المطلوب موجود ومجهز بكافة المستلزمات الضرورية وطبقا لاحدث التصاميم العصرية الموجودة في ارقى مسارح العالم؟ ما الذي يمنع او يعرقل افتتاح المركز الثقافي في غزة امام الفرق الناشئة؟ ما الذي ننتظره؟ أهو قيام الدولة ام هبوط فنانين مبدعين في الفضاء كي يقوموا بتشغيله!!! ... ثم لماذا تم انشاؤه من الاساس؟ وما هي المدة التي تستطيع بها بنايته واجهزته أن تحافظ على حداثتها دونما استعمال؟ ثم اين هي الهيئة الخيرية التي تشرف عليه وما الذي يمنعها من افتتاحه امام النشاطات المختلفة سواء أكانت محاضرات او ندوات او معارض فنية او عروض تراثية او مسرحية؟.

انني أعلم تمام العلم انه ليس من الصعب البحث عن ذرائع وحجج قد تبدو مقنعة للبعض للاجابة على كل ما سلف، ولكنني مصّر وزملائي المسرحيين على عدم جدوى البحث عن مبررات ومصرين لخدمة الاغراض التي تم انشاؤه من أجلها، ونؤكد في الوقت ذاته على ان التسويف والمماطلة لا يمكن ان يخدما قضيتنا بأي حال من الاحوال. وأرجو ان تعتبر مقالتي هذه بمثابة دعوة الى كافة المهتمين بالحركة الثقافية الفلسطينية لبذل اقصى ما يمكن من الجهد من أجل افتتاح هذا المركز من أقرب فرصة ممكنة من اجل تفعيل وتنشيط الحياة الثقافية والفنية في القطاع ولتمكين فرقنا المسرحية هناك من ممارسة نشاطاتها ضمن افضل الظروف الممكنة علنا نحقق جزءا ولو كان بسيطا من اهدافنا وتطلعاتنا كشعب يطمح الى بناء وتطوير حضارته ويسعى الى نيل حريته واستقلاله.

في ندوات المهرجان:

لطفي الخولي: ليست هناك نظرية جامدة في الفن

طرحت الندوة الرئيسية الاولى لمهرجان المسرح التجريبي تحت عنوان التجريب والتغيير الاجتماعي، قضية علاقة التجريب بالتداخل الثقافي.

فعلق على ذلك لطفي الخولي قائلا: ان التجريب كلمة جاءت من المختبر، عندما دخل العلم المعامل. والمشكلة بالنسبة لنا نحن العرب اننا نجد انفسنا في ان نلبس كل شيء لباسا عربيا، ولذلك تتمسم ثقافتنا بالتمحور حول الذات، مما يجعلنا لا نتدخل مع الثقافات الاخرى، بل نعزل عنها. وليست هناك نظرية جامدة في الفن او السياسة او الاقتصاد.. فقد حدثت انهيارات في النظرية الماركسية لانه حدث نوع من الجمود، فاصطدمت النظرية بالواقع رغم تطلعها وحسن نيتها.

واعترض الناقد اللبناني بول شاؤول عن انعدام العلاقة بين التجريب والتداخل الثقافي قائلا: انه ليست هناك شعوب خالصة، ولكن الشعوب تداخلت ولا يمكن ان يكون التجريب الا جزءا من هذا التداخل.

وطرحت الجلسة الاخيرة في الندوة الثالثة عن التجريب والتغيير الاجتماعي تحدثت فيها لورا خرابوا من امريكا.. أن التجريب نشط في امريكا في فترة الستينيات التي تعتبر اخصب فترات المسرح الامريكي - في ظل توترات اجتماعية متمثلة في حركة الدفاع عن السود وحرب فيتنام، علاوة على المتغيرات الاجتماعية الاخرى التي أفرزت حركة المسرح الحي، وقال روجيه عساف المخرج اللبناني: ان علاقة التجريب بالتغيير الاجتماعي علاقة محدودة في ظل وجود السلطة الرقابية في المجتمعات المختلفة.

Digitized by Birzeit University Library

السينما الفلسطينية

(١)

الاستاذ عدنان مدانات •

ومع انتشار التصوير الفوتوغرافي في القرن التاسع عشر اصبحت ارض فلسطين ايضا هدفا للمصورين الذين بدأوا يجولون منطقتنا مستثمرين هذا الاختراع الجديد ومستغلين اهتمام الجمهور برؤية صور ارض فلسطين. وقد حدث الامر ذاته مع بداية انتشار السينما، وصارت ارض فلسطين تشكل موضوعا مغريا لاولى شركات الانتاج السينمائية الاخبارية التي انبثقت عنها فيما بعد وكالات الانباء المصورة. وكانت الشركات الاخبارية السينمائية تنتج افلاما قصيرة عن الاحداث في العالم لا يتعدى طولها في معظم الاحيان دقيقتين من الزمن. ولجذب الجمهور ومشاهدة هذه الافلام كان الاعلان يجري احيانا عن انها تتضمن لقطات من الارض المقدسة. وعرض احد الافلام لقطة القطار يصل الى المحطة في الظلام، وكان الاعلان قد ذكر ان هذه المحطة محطة القدس.

وفي ذلك الزمن، اي في السنوات الاولى لاختراع السينما، كانت الوثائقية هي الصفة المعروفة عن الافلام، وكان الجمهور مستعدا لتصديق ان كل ما يراه هو مناظر حقيقية.

وعلى هذا يمكن القول ان فلسطين كانت منذ بداية السينما هدفا اساسيا تتوجه نحوه نشاطات مصوري شركات السينما، ومنها بالذات شركة "باتيه جورنال" اولى وكالات الانباء السينمائية في العالم.

• ولد في عمان ١٩٤٦.

• تخرج من جامعة موسكو (لومونوسوف) ١٩٧٠.

• عمل مخرجا سينمائيا، واخرج افلاما تسجيلية للمؤسسة العامة للسينما في دمشق (١٩٧١ - ١٩٧٢) ومؤسسة السينما الفلسطينية (١٩٧١ - ١٩٨٢)، ومارس الصحافة والنقد السينمائي، وهو عضو في اللجنة التنفيذية لاتحاد السينمائيين التسجيليين العرب (١٩٧٠) وفي رابطة الكتاب الاردنيين.

• الف: بحثا عن السينما والهوية القومية في السينما العربية (كتاب مشترك). وصدرت له مجموعة كتب مترجمة في المسرح والسينما وعلم الجمال.

المقدمة

من المعروف ان ارض فلسطين كانت، بوصفها الارض المقدسة، محط اهتمام الرحالة الاوروبيين والمبشرين والمستشرقين منذ بداية عصر النهضة في اوروبا. ومعروف ايضا انه منذ القرن الثامن عشر جاب ارض فلسطين عشرات الرسامين الاوروبيين الذين اهتموا برسم الاماكن المقدسة.

وقد لعبت هذه الرسوم دورا اضافيا في زيادة اهتمام الجمهور الاوروبي بالارض المقدسة. وهذا بدوره ما جعل من هذه الرسوم استثمارا تجاريا تقوم به المطابع المتعددة. وانتشرت بالتالي النسخ المطبوعة عن اللوحات التي تصور الاماكن المقدسة.

Digitized by Birzeit University Library

غير ان الاهتمام المستمر بفلسطين سينمائيا لم يكن وافيه الوحيد اهتمام الجمهور المسيحي الاوروبي برؤية مناظر الارض المقدسة، بل كان هناك دافع آخر هو تصادف زمن اختراع السينما وانتشارها في العالم مع بداية ظهور الحركة الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر وادعائها بحق اليهود في السيطرة على ارض فلسطين (ارض الميعاد) وكان هذا بداية تحول ارض فلسطين الى بؤرة للصراع والاستقطاب الدولي.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر بدا واضحا ان الحركة الصهيونية اهتمت على نحو واسع باستغلال السينما من اجل الدعاية للاهداف الصهيونية، ويذكر السينمائي فائم حول في كتابه السينما الفلسطينية هذا الخبر حول بداية الاهتمام الصهيوني بالسينما، فيقول:

"حين انعقد مؤتمر بال الصهيوني في سويسرا عام ١٨٩٧ كان عمر السينما انذاك ثلاث سنوات فقط وعندما نوقش موضوع ما يسمى الوطن القومي لليهود تقرر الاستفادة من كل الوسائل المستطاعة لخدمة هذا الغرض. واما على الصعيد السينمائي فقد تشكلت لجنة مهمتها الاستفادة من هذه الاداة التعبيرية الى اقصى حد ممكن". (١)

وتجمع الدراسات المتعلقة بتاريخ السينما الصهيونية على ان فيلم "قضية دريفوس" The Dreyfus Affair الذي اخرجه الفرنسي جورج ميليسGeorge Melies عام ١٨٩٩ كان اول الافلام ذات التوجه الصهيوني في العالم. وفي الحقيقة، ان وجهة النظر هذه تنقصها الدقة لان الفيلم بحد ذاته لم يكن صهيونيا، وكان يمكن ان لا يترك اي صدى خاص لولا الدعاية التي احيط بها، ولولا ان الحركة الصهيونية استغلته على نحو واسع لخدمة اهدافها الدعائية. ولذلك فان قصة فيلم "قضية دريفوس" توضح الابعاد الهامة لامكانية استغلال السينما في الدعاية الفكرية والتأثير العاطفي في الرأي العام.

ولا بد لتوضيح ذلك، من تفسير تلك المرحلة من تاريخ السينما ودور جورج ميليس بالذات. فكما ذكرنا، كان الاساس الغالب على السينما هو انها وثائقية تسجيلية. وكان جورج ميليس اول السينمائيين الذين بدأوا يستخدمون امكانات التمثيل والتصوير في الاستوديو اعتمادا على الحيل السينمائية التي كان من روادها الاوائل ومن اهم مخترعيها. وقد صنع ميليس كثيرا من الافلام التي تقوم على اساس اعادة تمثيل الوقائع وتقديمها على انها وثائق حقيقية صورت وقت حدوثها. واثر فيما بعد بطريقته هذه في توجهات وكالات الانباء السينمائية التي كثيرا ما كانت تلجأ الى التحايل والادعاء بأنها تعرض مشاهد حقيقية عن امم الاحداث في العالم.

يكتب مؤرخ السينما الشهير جورج سادول George Sadol عن فيلم «قضية دريفوس» فيقول ما يلي:

كان ميليس قد شرع منذ وقت قريب بصنع فيلم عن الواقعة المعاد تشكيلها عنوانه "قضية دريفوس" (١٨٩٩) وهو الفيلم الكبير الاول للمخرج، وقد دام عرضه ما يقرب من ربع ساعة. وكانت قضية دريفوس قد بلغت اوج حدتها. وبما ان ميليس كان دريفوسي النزعة وضد البولانجية (انصار الجنرال بولانج) فان الفيلم الذي حققه عن المحاكمات التي جرت في مدينة رين يعيد عمدا تسجيل المشاهد التي من شأنها كسب شفقة الحكام على الضابط البريء. وهذه المشاهد هي: تجريده من رتبته، ومقابلته لامرأته، ومحاولة اغتيال محاميه". (٢)

كانت قضية دريفوس قد بدأت قبل اختراع السينما، وقبل عامين من بداية اول عرض سينمائي في العالم، غير ان هذه المحاكمة التي جرت في عام ١٨٩٤ اثارت ردود فعل متضاربة بين مؤيد ومستنكر، وقد شارك في الدفاع عن دريفوس مجموعة من مثقفي المعارضة منهم الكاتب المعروف اميل زولا. وفي حين ان مؤيدي محاكمة دريفوس بدأوا في اثارة مشاعر معادية للسامية بشكل عام انطلاقا من كون دريفوس يهوديا فان معارضي المحاكمة رأوا في الدفاع عنه مسألة انسانية لانهم اعتبروا ان التهمة الموجهة اليه، وهي التجسس لمصلحة المانيا، تهمة ملفقة. غير ان القضية بدأت تحمل بعدا جديدا منذ عام ١٨٩٨ عندما تقرر اعادة المحاكمة، ففي ذلك الوقت كان قد مضى عام على تأسيس الحركة الصهيونية رسميا في مؤتمر بال.

وهكذا استفاد الدعاة الصهاينة من فيلم "قضية دريفوس" وبدأوا بعرضه في كل مكان واستخدامه للدعاية للفكر الصهيوني موهمين الجمهور بأن الفيلم يصور وقائع المحاكمة الحقيقية (التي جرت عمليا عام ١٨٩٤)، ويظهر صورة دريفوس الحقيقي اعتمادا على اسلوب المخرج ميليس في اعادة تركيب الوقائع وتصويرها كما لو انها حقيقية. واما ميليس نفسه فقد صنع الفيلم متأثرا بكتابات اميل زولا لا خدمة لاهداف الحركة الصهيونية.

ومع انتشار السينما في العالم بدأ تاريخ فلسطين يصبح موضوعا لكثير من الافلام التي انتجتها شركات الانتاج في اوروبا وامريكا. وكانت قصص التوراة هي الارض الخصبة التي نبتت فوقها مواضيع هذه الافلام. ومع زيادة تغلغل الرأسمال الصهيوني في شركات الانتاج الكبرى، وبخاصة بعد وعد بلفور، تزايدت الافلام ومنها تلك التي تتحدث عن "حق اليهود" في «العودة الى ارض الميعاد»، وبالتالي بدأت

Digitized by Birzeit University Library

تختفي الصورة المعروفة عن فلسطين باعتبارها الارض المقدسة لتحل محلها صورة جديدة هي صورة ارض الميعاد.

السينما على ارض فلسطين حتى عام ١٩٤٨

بدأت الحركة الصهيونية نشاطها الانتاجي السينمائي المباشر على ارض فلسطين في وقت مبكر من القرن العشرين، وذلك من خلال الافلام التي صنعها المستوطنون اليهود. وكان اول شريط سينمائي انتج على ارض فلسطين بعنوان «حياة في ارض الميعاد» (عام ١٩١٢)، ويتضمن دعاية للحياة في المستوطنات اليهودية. والفيلم من اخراج جاكوب بن دوف، وهو مخرج روسي هاجر الى فلسطين بعد ثورة عام ١٩٠٥. وبعد ذلك بعشرة اعوام اخرج جاكوب بن دوف فيلما اخر بعنوان «الفيلق اليهودي»، وكان فيلما دعائيا عن القوة العسكرية الصهيونية في فلسطين.

وقد شهدت الثلاثينات زخما من الافلام الصهيونية المنتجة داخل فلسطين قام باخراجها مخرجون مهاجرون. وكانت مواضيع هذه الافلام تدور بشكل رئيسي حول المستوطنات اليهودية وتدعو الى هجرة يهود اوروبا الى فلسطين. وفي الاربعينات، ومع ازدياد شراسة النازية، بدأت الافلام الصهيونية في فلسطين تتحدث عن اضطهاد اليهود، وتصور بالمقابل ارض فلسطين باعتبارها ملجأ الامان لليهود المضطهدين في العالم. ومن هذه الافلام "بيت ابي"My Father's House(١٩٤٧) الذي اخرجه هربرت كلين Herbert Kline عن فتى انقذ من معسكرات الاعتقال النازية وجاء الى فلسطين ليبحث عن ابيه ويلتحق به (٣).

وكان نشاط المستوطنين السينمائي في فلسطين جزءا من نشاط اعم لمصلحة الحركة الصهيونية والفكر الاستيطاني قام به سينمائيون اوروبيون وامريكيون مناصرون للصهيونية، ومنهم بالذات سينمائيو ألمانيا النازية الذين حققوا افلاما وثائقية تسجيلية دعائية صوروها على ارض فلسطين وكانت تمجد اعمال المستوطنين اليهود وتتحدث عن الحياة السعيدة في المستوطنات بفضل جهود المهاجرين الذين زعمت انهم "حولوا ارض فلسطين الجرداء الى ارض زراعية غنية بالثمرات". وقد تم انتاج هذه الافلام النازية ذات التوجه الصهيوني من قبل شعبة فلسطين في الاعلام المركزي النازي في اواسط الثلاثينات وبداية الاربعينات (٤).

وبالاضافة الى هذه الافلام المنتجة لمصلحة الحركة الصهيونية يجب الالتفات الى نشاط وكالات الانباء الغربية التي هرعت الى فلسطين لتصوير الاحداث والمعارك التي كانت تحصل فيها، وقد تركز نشاط وكالات الانباء المحموم بخاصة في الثلاثينات التي شهدت تصاعدا ملحوظا في نضال الشعب الفلسطيني ضد سلطات الانتداب الانكليزية والقوى الصهيونية المسلحة.

وكانت المواد الاخبارية التي تصورها وكالات الانباء السينمائية العالمية على ارض فلسطين تعرض على الجمهور الاوروبي ضمن سياق معاد للعرب ولقضية الشعب العربي في فلسطين. فلنقرأ على سبيل المثال ما كتبه الناقد والصحفي الانكليزي تايلورد اوننغ في دراسته المعنونة : «فلسطين في السينما» اذ قال: "في الثلاثينات كانت الثورة العربية - الفلسطينية (١٩٣٦/١٩٣٩) الموضوع السياسي الرئيسي الذي حظي بتغطية في الجريدة السينمائية البريطانية. وهنا قدمت الجريدة السينمائية الصهيانة مرة اخرى، من وجهة نظر غربية ايجابية، بينما كانت لا تزال تنظر الى الفلاسطينيين من منظور رجعي وسلبي وغريب وخاطىء" (٥).

ويلاحظ من يتتبع الوثائق السينمائية المصورة قبل عام ١٩٤٨ انها كانت عبارة عن مشاهد او لقطات للاحداث او للظروف المعيشية والبيئية التي يعيشها الفلسطينيون ويبدون من خلالها في وضع متخلف نوعا ما، وان هذه الوثائق تخلو كليا من مقابلات مع شخصيات فلسطينية يمكن ان تشرح من خلالها وجهة النظر الفلسطينية تجاه الاحداث. هذا في حين انه، بالاضافة الى التصوير الايجابي للحياة في المستوطنات، كان المجال يفسح امام قادة الحركة الصهيونية لاجراء مقابلات سينمائية يشرحون عبرها وجهات نظرهم. وتتضح هذه الحقيقة بشكل خاص من خلال البرنامج السينمائي الذي اعده التلفزيون البريطاني في عام ١٩٨٥، وهو مكون من مجموعة حلقات حملت عنوانا عاما هو «نهاية امبراطورية». وفي الحلقة المخصصة لفلسطين، وهي تعتمد اساسا على الوثائق المصورة حينذاك، نرى ونسمع مقابلات اجريت في حينها مع قادة الصهاينة يعبرون فيها عن رأيهم بشأن ما يجري، فيما يغيب الصوت الفلسطيني ويستعاض عنه في البرنامج بتعليق معاصر كتبه مؤلف الفيلم من وجهة نظره، فضلا عن مقابلات مع شخصيات عربية وفلسطينية كان لها دور معين انذاك، وهي مقابلات اجريت حديثا.

تلك كانت الصورة الغالبة في الانتاج الفيلمي على ارض فلسطين. ومع تعدد الاطراف التي شاركت في رسم هذه الصورة يلاحظ غياب الطرفين العربي والفلسطيني من الصورة غيابا كليا.

ان لهذه الظاهرة دلالة قصوى، نظرا الى اهمية الدور الاعلامي الذي كان يمكن ان تقوم به السينما لخدمة القضية الوطنية

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطينية في مواجهة النشاط السينمائي المعادي. وتشير هذه الدلالة الى ناحية هامة من نواحي القصور في النضال الفلسطيني منذ بداية العشرينات من هذا القرن وحتى يومنا هذا، ذلك القصور الذي يكمن في التجاهل الكلي لامكانية استخدام سلاح دعائي تحريضي اعلامي هام هو السينما التي اصبحت منذ انتشارها عالميا وسيلة من وسائل التأثير الفكري والعاطفي في الرأي العام محليا وعالميا.

ويجدر بنا هنا ان نذكر بعض الاسباب التي ادت في رأينا الى هذا القصور، قبل الحديث عن محاولات منفردة لم يكتب لها النجاح، قامت على ارض فلسطين في الاربعينات لانتاج افلام سينمائية.

ومن المؤكد ان فلسطين عرفت ظاهرة العروض السينمائية من خلال صالات السينما الحديثة منذ العشرينات عندما صدر القانون الخاص بالاشرطة السينمائية في عام ١٩٢٧ وكان يتضمن تعليمات بشأن شروط العروض والرقابة واستيراد الاشرطة السينمائية والدعاية للعروض ... الخ.

وفي الثلاثينات انتشرت في المدن الفلسطينية الرئيسية مجموعة من صالات السينما المجهزة التي كانت تعرض الافلام التجارية، المصرية بشكل خاص، على الجمهور، حيث انه كانت في مدينة القدس وحدها مجموعة من صالات السينما العربية منها صالة "ركس" و "عدن" و "اديسون" و "اوريون" و "زيون". (٦).

وانا اخذنا بعين الاعتبار ظاهرة انتشار العروض السينمائية، لاحظنا بالمقابل غياب اي تعامل ثقافي مع ظاهرة السينما من خلال وسائل الاعلام الفلسطينية. فعلى سبيل المثال لم تشر جريدة الكرمل السياسية الثقافية الاجتماعية التي كانت تصدر مرتين في الاسبوع في فلسطين وتعتبر من اهم الجرائد انذاك، لم تشر في اعدادها التي صدرت في اواخر العشرينات ايما اشارة الى السينما او الى الافلام المعروضة، علما بأن هذه الفترة بالذات كانت فترة نشوء السينما العربية في مصر وبداية غزوها لصالات السينما في العالم العربي، وهي الفترة التي عرفت فيها الدول العربية المجاورة لفلسطين المحاولات الاولى لانتاج افلام سينمائية. هذا في حين كانت جريدة الكرمل تنشر في تلك الفترة اخبارا عن الاختراعات التي تتم في العالم وتتعلق بوسائل الاتصال، مثل الراديو والتلفراف والاسطوانات وغيرها، بالاضافة الى اهتمامها بنشر اخبار ادباء مصر الذين كانوا يزورون فلسطين، او اخبار الفنانين المصريين الذين كانوا يحضرون الى فلسطين لاحياء الحفلات، ومنهم المطربة الناشئة انذاك ام كلثوم.

ومكذا فانه رغم وجود ظاهرة العروض السينمائية في وقت مبكر نسبيا في فلسطين لم يقدر للسينما ان تتحول الى ظاهرة ثقافية اجتماعية. ومن اسباب ذلك سيادة بعض المفاهيم الاجتماعية والاخلاقية التي كانت ترى في ظاهرة السينما بدعة غربية مفسدة للاخلاق. وهنا يجدر بنا ان نذكر ان الافلام التي كانت تعرض في تلك الفترة كانت تنحصر في الافلام الخفنائية او الاستعراضية والافلام التي تطرح قصص الحب، وينطبق هذا بصفة خاصة على الافلام المصرية التي كانت تنتج في تلك الفترة، اي في الثلاثينات. وقد لاقى هذا النوع من الافلام، والسينما بالتالي، معارضة من بعض الاوساط الاجتماعية المحافظة والفئات الدينية التي غالبا ما كانت تطالب اجهزة الحكم المختصة بمنع الافلام التي تدور حول قصص الغرام او فرض الرقابة عليها. وتكررت مثل هذه المطالب في مصر وسوريا وفلسطين من قبل المنظمات ذات الصبغة الدينية (٧).

ومن البديهي اذن ضمن هذه الظروف والمفاهيم، ان يتم تجاهل السينما باعتبارها سلاحا ممكنا من اسلحة العمل الاعلامي او الدعائي من اجل خدمة اهداف القضية الفلسطينية العربية على ارض فلسطين ذاتها.

ومن ناحية ثانية تجدر ملاحظة جانب آخر هام لهذه القضية يتعلق بالقوانين السارية المفعول التي وضعتها سلطات الانتداب الانكليزية والتي كانت تستمع اي انتاج سينمائي فلسطيني، فيما لو شرع به، يهدف الى صنع افلام ذات قيمة دعائية سياسية او اعلامية لمصلحة قضية الشعب الفلسطيني، بل ان هذه القوانين كانت تستمع حتى عروض الافلام التي تنتج خارج فلسطين ويمكن ان تتضمن قيما دعائية او اعلامية.

هذا، ومن الجدير بالذكر ان القوانين المتعلقة بالسينما التي بدأت تصدر منذ الثلاثينات كانت قوانين طوارىء. وكانت التعديلات تجرى عليها عاما بعد عام، مؤكدة اكثر فاكثر هيمنة الرقابة القمعية، وذلك بالتوافق مع نمو العمل الوطني الثوري الفلسطيني. وكانت هذه القوانين المعدلة تشمل المجالات الاعلامية ومجالات الانتاج الفيلمي بالرغم من عدم وجود مثل هذا الانتاج فلسطينيا.

فعلى صعيد الرقابة السينمائية على عروض الافلام نذكر ان القانون رقم ٥٧ لعام ١٩٣٩، وهو القانون المعدل لقانون الملاهي العمومية الصادر عام ١٩٣٥، قد اضاف صراحة فقرة جديدة تحت باب احكام خاصة بشأن اشرطة السينما تلح على اصحاب دور السينما ان يقدموا الى ضابط البوليس المسؤول، وبشكل مسبق، برنامج الافلام التي ستقوم دور السينما بعرضها، مع منع اجراء اي تغيير في هذا البرنامج السبق بدون موافقة ذلك الضابط (٨).

Digitized by Birzeit University Library

فالرقابة اذن لا تكتفي بمضمون الافلام بل انها تهتم حتى بمواعيد عرضها.

وفيما يتعلق بالرقابة على الانتاج الفيلمي بحد ذاته فان قوانين الرقابة بدات تصبح اكثر صراحة وقمعا. فقد نص الامر الصادر من مراقب الافلام في عام ١٩٣٩ على ما يلي:

واستنادا الى الصلاحية المخولة لي في المادة ١١ من نظام الطوارىء لسنة ١٩٣٦، انا آرثر فردريك جايلز، امر بحظر طبع واخراج وعرض وبيع الصور الفوتوغرافية واللوحات والاشرطة السينمائية او غير ذلك من المصورات التي تحتوي على مناظر اعمال العنف وضحاياها او تشير الى شخص او اشخاص يحملون السلاح او يعزى اليهم حمله ضد الحكومة او تشير الى عمليات الجند". (٩).

وهنا من المهم ملاحظة ان هذا الحظر لم يكن يطبق عمليا على اعمال المصورين الاجانب والصهاينة الذين سجلوا عبر الصور الثابتة والاشرطة السينمائية كل الاحداث والمعارك التي عرفتها ارض فلسطين في ذلك الوقت.

وهكذا اسهم غياب الوعي بأهمية السينما، الى جانب القوانين القمعية، في عدم نشوء سينما فلسطينية على الرغم من التطور الحضاري الذي عرفه شعب فلسطين منذ بداية القرن.

لقد عرفت فلسطين في الاربعينات من هذا القرن محاولات فردية لصنع افلام على ارض فلسطين من قبل فلسطينيين. ولكن لم يترك الزمن نسخا من هذه الافلام او الاشرطة التي تم تصويرها من قبل هواة السينما انذاك. والمعلومات المتوفرة عن هذه المحاولات استقيت من مقابلات صحفية اجريت في وقت متأخر جدا مع بعض اصحاب هذه المحاولات، ومنهم ابراهيم حسن سرحان الذي ذكر في مقابلة اجراها معه قاسم حول انه تعلم السينما كهواية وقام بتصنيع بعض الاجهزة بنفسه وانه صور اول فيلم له في عام ١٩٣٥ عن زيارة الملك سعود الى فلسطين. وذكر ايضا ان مدة الفيلم كانت عشرين دقيقة وانه عرض في احد المصايف اثناء موسم احتفالات روبين وعرض ايضا في سينما امبير في تل ابيب.

وذكر ايضا انه عمل فيلما بعنوان "احلام تحققت" عن حرم القدس كدعاية للايتام وانه عمل في الاربعينات فيلما عن حفل افتتاح الاستوديو الذي اسسه وعرض الفيلم في سينما فاروق، كما عمل فيلما عن احمد حلمي باشا عضو الهيئة العربية العليا، وقد عرض الفيلم في سينما الحمراء في يافا. كما اعلن في عام ١٩٤٥ عن تأسيس "ستوديو فلسطين" وقام بمحاولة لم يكتب لها النجاح لانتاج فيلم من نوع المغامرات بعنوان "في ليلة العيد"، كما نشر اعلانات في الصحف المحلية عن بدء انتاج فيلم بعنوان "عاصفة في بيت" (١٠).

وعدا ابراهيم حسن سرحان كان ثمة سينمائي آخر هو احمد حلمي الكيلاني الذي نكر في مقابلة اجراها معه حسان ابو غنيمة انه درس السينما اخراجا وتصويرا في القاهرة وتخرج منها في عام ١٩٤٥ ثم عاد الى فلسطين وأسس مع جمال الاصفر وعبد اللطيف الحاج هاشم شركة سينمائية سميت "الشركة العربية لانتاج الافلام السينمائية".

واما المعلومات التي يذكرها احمد حلمي الكيلاني فمتقاربة ومتباعدة في آن مع تلك التي اوردها ابراهيم حسن سرحان. فهو يذكر ان فيلم "احلام تحققت" اخرجه خميس شبلاق، بينما قام سرحان بتصويره. ويذكر ان فيلم "في ليلة العيد" الذي لم يتم انجازه كان من اخراج جمال الاصفر الذي استخدم معدات بدائية مصنعة ذاتيا (١١).

وكان في فلسطين ايضا سينمائي آخر هو محمد صالح الكيلاني الذي كان يملك استوديو للتصوير الفوتوغرافي في يافا، ثم سافر الى ايطاليا ودرس هناك الاخراج السينمائي وعاد الى فلسطين ليتعاون مع المكتب العربي التابع لجامعة الدول العربية الذي كلفه اخراج فيلم عن القضية الفلسطينية. غير ان الفيلم لم ينجز فهاجر الكيلاني الى القاهرة واستقر فيها حيث تابع نشاطه السينمائي هناك واخرج بعد عام ١٩٤٧ مجموعة من الافلام التسجيلية بعضها عن فلسطين، كما اخرج وانتج افلاما روائية احدها كان عن فلسطين، اخرجه في سوريا عام ١٩٦٩ بعنوان "ثلاث عمليات داخل فلسطين" (١٢).

ولم تثمر كل هذه المحاولات الفردية على ارض فلسطين في خلق سينما فلسطينية لانها لم تكن محاولات منظمة او مدعومة، كما انها لم تكن قائمة على اساس وعي ثقافي باهمية السينما ودورها كسلاح اعلامي فعال. ويتضح هذا بخاصة من حديث ابراهيم سرحان وحديث الكيلاني. فاما سرحان فيشير الى انه كان يشاهد يهودا يأتون الى مناطقنا ويهتمون بتصوير المناظر البائسة، ومع ذلك فلم يكن عنده علم باهتمام الصهاينة بالسينما. وبالمقابل كان ابراهيم سرحان يفهم السينما باعتبارها مجرد قصص يمكن تمثيلها وعرضها على الجمهور ويؤكد قاسم حول في تحليله لاجوبة سرحان وجود هذا الفهم الناقص للسينما فيكتب:

"ان حديث سرحان يلقي ضوءا على الفهم السائد للبدايات السينمائية البسيطة ويتجلى ذلك من خلال قوله:

"... انني اريد ان اعمل افلاما فيها قصة وموضوع ... انه يفهم ان السينما هي الفيلم الروائي وان المحاولات الوثائقية لم تكن الا بسبب الامكانات البسيطة التي تتحرك من خلالها" (١٣).

Digitized by Birzeit University Library

فلسطين في السينما العربية: ١٩٤٨ - ١٩٦٧

من المعروف ان اول انتاج سينمائي عربي تم فيه ذكر موضوع فلسطين يعود الى عام ١٩٤٨. وقد كان ذلك في فيلم "فتاة من فلسطين" الذي اخرجه محمود ذو الفقار ويقدم فيه قصة فتاة فلسطينية تهاجر الى مصر بعد النكبة فتعشق شابا مصريا وتتزوجه وتستقر معه بعد ان تنتصر على منافستها المصرية في حبه.

ويذكر حسان ابو غنيمة في كتابه فلسطين والعين السينمائية ان مخرج الفيلم وضع تحت الرقابة من قبل البوليس السياسي لانه يشتغل في الامور السياسية والدليل انه اخرج فيلم "فتاة من فلسطين" (١٤)

وتؤكد هذه الواقعة السبب الرئيسي الذي منع امكانية ان يهتم السينمائيون المصريون بقضية فلسطين عبر السينما. ويكمن هذا السبب في الرقابة على الافلام وشروطها التي اعاقت انتاج افلام ذات طابع وطني مصري وافلام عن فلسطين قبل عام ١٩٤٨، وجعلت من الافلام التي ذكرت موضوع فلسطين بعد عام ١٩٤٨ افلاما سطحية خالية من اي مضمون سياسي جاد.

فالرقابة في مصر، حسبما يقول الدكتور محمد خليل راشد في الفصل الثاني من كتابه فجر السينما الذي صدر في بداية الثلاثينات: "تحول دون نشر كل ما يهيج الجمهور كمناظر الوقائع الحربية في اوقات الحرب ... والروايات الوطنية التي تستفز الشعور في الامم المغلوبة على امرها" (١٥)

ويذكرنا هذا النص الى حد بعيد بالامر الصادر عن المراقب الانكليزي على الافلام في فلسطين، وقد اوردنا نصه سابقا، ان يؤكد النصان الشروط القمعية المتشابهة التي سادت العالم العربي الواقع تحت السيطرة الاستعمارية واسهمت بدورها في عدم نشوء سينما وطنية تعبر عن القضايا التحررية للشعوب العربية والشعب الفلسطيني بالذات. وهي ايضا نفس الشروط القمعية التي ادت الى منع عرض فيلم احمد بدرخان عن مصطفى كامل لانه يتعارض مع التعليمات الخاصة بالرقابة على الافلام التي صدرت في العام ١٩٤٧، والتي ينص البند السابع منها على مايلي:

"نظرا للظروف التي تجتازها البلاد، تراعى الدقة والحذر في ذكر المواضيع التاريخية ومشاهير الرجال والعظماء مثال البطولة الوطنية، خصوصا الموضوعات الحديثة العهد مما يخشى معه احداث الشغب او اثارة الخواطر" (١٦).

وبديهي انه لا يمكن فصل شروط الرقابة عن مجمل الشروط السياسية في ذلك الوقت الذي تميز بوجود حكومات عميلة خاضعة للسلطات الاستعمارية، سواء قبل مرحلة الاستقلال او بعدها، كانت تقف في وجه اية حركة وطنية تقدمية او اي فكر وطني تقدمي.

وبديهي ايضا ان السينما كانت، من بين وسائل التعبير الثقافية والاعلامية، عرضة اكثر من غيرها للامتثال لشروط الرقابة لان اجهزة الرقابة بمقدورها لا مراقبة الانتاج منذ بدايته فقط بل مراقبته عند التوزيع ايضا، اي عند عرضه او منعه عند الضرورة. وهذا يعني ان السينما لم تكن تملك ضمن الشروط السائدة ذلك الحيز ولو الضيق من الحرية الذي كانت تملكه وسائل الاتصال الاخرى، وبخاصة المطبوعة.

وليس صدفة بالتالي ان تشتد الرقابة على السينما عموما بعد حرب عام ١٩٤٨. وكمثال على تعاظم دور الرقابة على الافلام في تلك الفترة نورد ما كتبه الناقد سمير فريد: "عام ١٩٤٥ كانت الرقابة تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية بالاشتراك مع وزارة الداخلية. وظل الامر كذلك حتى بدأت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ فعادت تبعية الرقابة لوزارة الداخلية" (١٧).

وهكذا، وضمن هذه الشروط، فان السينما المصرية توقفت بعد ان انتجت في عام ١٩٤٨ فيلما آخر فيه ذكر لموضوع فلسطين، وهو فيلم "ناديا"، عن انتاج الافلام التي تتطرق الى الموضوع الفلسطيني.

وحسب الاحصاء الذي اورده الناقد حسان ابو غنيمة في كتابه فلسطين والعين السينمائية فان تجاهل موضوع فلسطين في السينما المصرية استمر حتى عام ١٩٥٣، اي الى ما بعد قيام ثورة تموز/يوليو في مصر. ويذكر حسان ابو غنيمة انه تم انتاج فيلم واحد عن فلسطين عام ١٩٥٣، وفيلم واحد عام ١٩٥٤، وفيلمين عام ١٩٥٥. وبشكل عام فقد استمر الانتاج السينمائي عن فلسطين حتى عام ١٩٦٧ بمعدل فيلم او اثنين في العام ما بين روائي وتسجيلي، باستثناء بعض الاعوام التي انتجت فيها عدة افلام معا، تسجيلية وروائية، مثل عام ١٩٥٦ (سبعة افلام)، وعام ١٩٦٧ (خمسة افلام).

ويعزو حسان ابو غنيمة هذا الصعود والهبوط في الانتاج السينمائي العربي عن فلسطين الى "الاهتمام العربي المرحلي بالاعلام عن القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٦٧، هذا الاهتمام الذي يرتبط بالاحداث الانية ويتطور معها عوضا عن اهتمامه الاستراتيجي بها كما هو مفترض" (١٨).

وقد كان الموضوع الفلسطيني بعامة، وبالتحديد بعد عام ١٩٤٨، موضوعا حساسا، فهو من جهة يذكر بتخاذل الحكومات العربية تجاه قضية فلسطين، وهو من جهة اخرى قادر على استثارة عواطف الجماهير

Digitized by Birzeit University Library

العربية التي اصبحت فلسطين بالنسبة اليها بمثابة الضمير الحي الكامن في نفوسها.

ويعتبر الناقد وليد شميط ان السينما العربية، وبخاصة المصرية، ظلت بعيدة كل البعد عن القيام بأي اهتمام حقيقي بالقضية الفلسطينية من شأنه مواجهة ادعاءات الاعلام الاسرائيلي وافتراءاته واكاذيبه، وهذا لا يعود الى التخلف الفكري في السينما العربية فقط، وانما يرجع ايضا الى طبيعة الانظمة السياسية التي كانت قائمة انذاك، ونظرتها الى السينما، ومنعها اثارة كل ما له علاقة بالقضية الفلسطينية من شأنه مواجهة ادعاءات الاعلام الاسرائيلي وافتراءاته واكاذيبه، وهذا لا يعود الى التخلف الفكري في السينما العربية فقط، وانما يرجع ايضا الى طبيعة الانظمة السياسية التي كانت قائمة انذاك، ونظرتها الى السينما، ومنعها اثارة كل ما له علاقة بالقضية الفلسطينية الا من بعض الجوانب العاطفية الهامشية (١٩).

ولفهم هذه الملاحظة يكفي ان نذكر ان فيلم "ناديا" الذي اخرجه فطين عبد الوهاب عام ١٩٤٨، وكان ثاني فيلم عن فلسطين في مصر، كان عبارة عن "ميلودراما" مليئة بالدموع حول مصير شهيد لا يحكي الفيلم شيئا عن قضيته.

ويصور فيلم "ارض الابطال" الذي اخرجه نيازي مصطفى عام ١٩٥٣ قصة شاب يفاجأ بحبيبته بين احضان والده فيتطوع في الجيش ويشترك في حرب فلسطين حيث يقع في حب فتاة من غزة.

ويتطرق فيلم "الله معنا" الذي اخرجه احمد بدرخان عام ١٩٥٤ الى قضية الاسلحة الفاسدة مستفيدا من تغير نظام الحكم بعد ثورة تموز/يوليو عبر قصة فيها من العواطف اكثر مما فيها من السياسة.

واما فيلم "ارض السلام" الذي اخرجه كمال الشيخ عام ١٩٥٧ وتدور احداثه اثناء حرب عام ١٩٥٦ فانه يتحدث عن قصة حب بين فدائي مصري وفتاة فلسطينية تساعده اثناء عملية له ثم تعود معه الى مصر وتتزوجه.

وعلى صعيد الافلام التسجيلية نلاحظ ان الافلام القليلة التي انتجت في مصر كانت تتضمن مواضيع سياحية مثل "القدس" (١٩٥٥)، و "اجراس السلام" (١٩٦٥)، او لاثارة عطف الجمهور على اوضاع الاجئين مثل "معسكر اللاجئين في غزة" (١٩٥٥)، او عن الدمار الذي اصاب المدن المصرية نتيجة العدوان الثلاثي، مثل "فليشهد العالم" (١٩٥٧).

ومن بين الافلام التسجيلية التي انتجت في مصر عن قضية فلسطين تتميز الافلام التي قام باخراجها المخرج الفلسطيني محمد صالح الكيالي وتابعت الموضوع الفلسطيني، وهي: "ارض السلام" (١٩٤٧)، و "فلسطين الدامية" (١٩٤٩)، و "هذه فلسطين" (١٩٥٥)، و "طلائع العودة الى فلسطين" (١٩٦٠)، و "بالسلاح عائدين" (١٩٦٠) و "اسرائيل قاعدة العدوان" (١٩٦٨) (٢٠)

ان هذه الافلام التسجيلية التي تشير عناوينها الى مضامينها تشير من جهة الى استمرار اهتمام المخرج محمد صالح الكيالي بالموضوع الفلسطيني، ومع ذلك فهي توضح حقيقة هامة تتعلق بطبيعة هذا الاهتمام ومدى جذريته وعلاقته بالاهتمام الذي ابدته الحركة الصهيونية بالسينما من اجل تسخيرها لاهدافها. ذلك انه من المعروف ان مجال انتشار الافلام التسجيلية وعرضها كان دائما مجالا ضيقا ومقيدا ومحدود التأثير بالتالي لانه لا توجد صالات خاصة بعرض هذه الافلام عرضا جماهيرية واسعة، فهي تعرض في اماكن خاصة وفي مناسبات خاصة ولجمهور قليل العدد. ومع اهمية انتاج الافلام التسجيلية باعتبارها شهادات موثقة من الواقع من حيث المبدأ، فان الاهتمام بها فقط كان يعني بالمقابل تجاهل الاهتمام بالسينما الروائية الاكثر قدرة على الانتشار والتأثير على الجماهير، كما انه يعني الابقاء على الفهم المتخلف للسينما الروائية باعتبارها مجرد وسيلة لسرد قصص الحب او وسيلة للتسلية، وبالتالي استبعاد الامكانية في ان تتطور السينما الروائية باتجاه التعبير عن مضامين سياسية وفكرية جدية ولعب دور معرفي في الحياة الاجتماعية.

وهكذا فان الكيالي قام في عام ١٩٥٢ باخراج فيلم روائي هو "بنت الشاطىء"، غير ان الفيلم لم يكن عن فلسطين بل كان على غرار الافلام المصرية التجارية السائدة في ذلك الوقت وهي التي كانت تقدم قصص الحب من خلال اجواء الميلودراما والكوميديا والرقص والغناء. والامر نفسه يمكن ان يقال بشأن الافلام الروائية التي قام الكيالي بانتاجها في مصر وهي "غني حرب" و "المليونيرة الصغيرة". واما الفيلم الذي اخرجه في سوريا عام ١٩٦٩، وهو "ثلاث عمليات داخل فلسطين"، فلم يكن اكثر من فيلم تجاري مفكك وساذج لا قيمة سياسية او فنية له على الاطلاق.

وهنا تجدر الاشارة الى ناحية اخرى مهمة ترتبط بعلاقة السينما العربية بموضوع فلسطين حتى حرب حزيران/يونيو عام ١٩٦٧. فاولا، تجمع الدراسات التي قام بها النقاد العرب حول هذه المسألة على ان الافلام انتجت، وبخاصة في مجال السينما التسجيلية، لم تكن تتجاوز الاطر المعروفة والمسموح بها من قبل السياسات الرسمية العربية، حتى ان معظم هذه الافلام، وبخاصة التي انتجت في مصر بعد عام ١٩٥٦، وباستثناء افلام محمد صالح الكيالي، كانت تنظر الى القضية الفلسطينية من منظار العدوان الثلاثي على

Digitized by Birzeit University Library

مصر. ولهذا فقد حظي موضوع دمار بور سعيد مثلا باهتمام اكبر بكثير مما حظي به موضوع ارض فلسطين السليبة وشعبها.

ومن ناحية ثانية فان الافلام التي عالجت موضوع القضية الفلسطينية كانت تستند الى التأثير العاطفي الناتج عن تقديم المأساة الفلسطينية على انها مأساة شعب مغلوب على امره يعيش في الخيام حياة بائسة فيما هو يحلم بالعودة الى وطنه السليب، وقد كان هذا مثلا موضوع فيلم "الارض السليبة" الذي اخرجته سعدية غنيم في مصر عام ١٩٦٤.

وغني عن القول ان مثل هذا التوجه السينمائي لم يأخذ بعين الاعتبار امكانية تقديم الافلام المنتجة الى الرأي العام العالمي بشكل علمي ومقنع، سواء كان هذا الرأي العام العالمي معاديا او محايدا او متعاطفا.

الحواشي

١) قاسم حول، السينما الفلسطينية، ص٦.

٢) جورج سادول، تاريخ السينما في العالم، ص ٤٧٩.

٣) سمير فريد، مدخل الى السينما الصهيونية، ص٢٨.

٤) اتيح لكاتب هذه السطور ان يشاهد عام ١٩٨٢ بعض مقاطع هذه الافلام النازية الصنوعة لمصلحة الحركة الصهيونية. وقد تم استخدام بعض هذه المواد في فيلم "سجل شعب" الذي اخرجه قيس الزبيدي في ذلك العام.

٥) عدنان مدانات، "نظرة جديدة الى تاريخ السينما الفلسطينية"، مجلة شؤون فلسطينية، شباط/فبراير ١٩٨٢.

٦) مجموعة القوانين الفلسطينية لسنة ١٩٢٩، مج٢، ص١١١.

٧) يعقوب لنداو، السينما والمسرح عند الغرب، ص٥٢٨.

٨) مجموعة القوانين الفلسطينية لسنة ١٩٣٩، مج١، ص٢١٦.

٩) مجموعة القوانين الفلسطينية لسنة ١٩٣٩، مج٢، ص١١١.

١٠) قاسم حول، السينما الفلسطينية، ص٩.

١١) حسان ابو غنيمة، فلسطين والعين السينمائية، ص٢٣٧.

١٢) السينما التسجيلية في مصر حتى اخر سنة ١٩٨٠، ص٤٨.

١٣) قاسم حول، السينما الفلسطينية، ص١٦.

١٤) حسان ابو غنيمة، فلسطين والعين السينمائية، ص٨٩.

١٥) سمير فريد، "السينما والدولة في العالم العربي"، بحث مقدم الى ندوة السينما العربية، القاهرة ١٩٨٥. (جامعة هيئة الامم - المستقبلات العربية البديلة).

١٦) يوسف اليوسف، قضية فلسطين في السينما العربية، ص١٤.

١٧) سمير فريد، "السينما والدولة في العالم العربي".

١٨) حسان ابو غنيمة، فلسطين والعين السينمائية، ص ١٠-١١.

١٩) وليد شميط، "السينما وقضية فلسطين"، شؤون فلسطينية، ص ٣٩.

٢٠) السينما التسجيلية في مصر حتى اخر سنة ١٩٨٠، ص٤٨.

يتبع في العدد القادم

في مهرجان اسكندرية السابع للسينما
الجمهور ترك صالات العرض ساخطا على نوعية الافلام

اختتم في ٩/٩ مهرجان الاسكندرية السينمائي اعماله وتم توزيع الجوائز على الافلام الفائزة.

جاء المهرجان هذا العام دون المستوى وخرج الجمهور ساخطا على معظم الافلام المعروضة، واثارت مشادات كثيرة بين الجمهور والنقاد.

وقد جاءت هذه النتيجة مغايرة للتصريح، أحمد الحضري، رئيس المهرجان لمصر الفتاة حيث قال: اننا نحاول ان نجعل هذا المهرجان مثيلا للمهرجانات الدولية، ولكن بالطبع هناك اخطاء، ومن المستحيل ارضاء كل الاطراف، واضاف ان افلام الابيض والاسود تقدم في كل المهرجانات العالمية، والفيلم الفائز هذا العام ابيض واسود.

اما السيناريست «محمود ابو زيد» فقال انه جاء مشاهدا وليس مدعوا، والمهرجان فرصة لالتقاء السينمائيين والفنانين لتصفية النفوس في جو ودي. ولكنه لم يعلق على مستوى المهرجان.

اما الجمهور الساخط والذي تمثلى رؤية الفلام جيدة، فقد خرج من معظم الافلام قبل نهايتها خاصة الفيلم الفرنسي «كاتومان».

وقد دافع د. رفيق الصبان عن الفيلم قائلا: انه حصل على ثلاث جوائز عالمية، ولكن الناقد السينمائي حسن امام عمر قال ان الفيلم رديء وممل.

اما الجمهور المصدوم فله رأي آخر فيقول مصطفى ابو العلا - موظف - انه جاء من المنصورة لرؤية الافلام الجيدة لكنه فوجيء بانها افلام درجة ثالثة.

احمد حمودة موظف يقول انه شاهد النقاد في معظم الافلام يغادرون قاعة العرض بعد دقائق وخاصة الفيلم الفرنسي.

محمد احمد قال انه اخذ اجازة لمشاهدة الافلام ولكنه نادم الان.

للقطات من المهرجان

- مشاركة الدول العربية القتصرت على تونس وسوريا.
- كان المهرجان فرصة للاسكندرانيين للحوار مع السينمائيين ومعرفة المكارهم.
- اصدرت ادارة المهرجان بطاقات دعوة للمحافظ اسماعيل الجوسقي، خالية من عبارة المستشار، فغضب المحافظ وقام بتمزيق الدعوات، وقام بطبع بطاقات اخرى عليها «المستشار المحافظ».
- المخرج صلاح ابو سيف كان يفضل الدوم مبكرا، معلنا رفضه لكل الاحاديث الجانبية.

Digitized by Birzeit University Library

بئر الغزال

د. ابراهيم العلم

- كم مضى على وجودك هنا؟!.

- هل تسألني حقا ام تسخر؟ لأنك تعلم أنني اقتطعت من عمري عندكم سبع سنوات حتى الآن!.

فابتسم المحقق في خبث ثم اردف في لهجة مستعلية:

- وستمضي ثماني سنوات اخرى كي تتم مدة الحكم!

- وهل جئت بي لكي تخبرني بذلك؟ حسنا سأمكث في (ضيافتكم) ثماني سنوات أخرى، هل يُسعدك ذلك؟

فاصطنع المحقق العبوس وقال في صوت ينم على الجد:

- بل احضرتك لأبلغك أن بستطاعتك مغادرة السجن الى الأردن اذا رغبت، مثلما فعل بعض زملائك.

«إذن فهم يُخيّرونك بين سجن طويل وبين النفي!»

يظنون انهم يضعونني في موقف يغريني بالتخلص من السجن فهل كان نضالي من اجل مصلحة خاصة؟ وشحك بينه وبين نفسه ... لو كان همي أن أنجو بنفسي خارج الوطن، لفعلت من البداية.

وحانت منه نظرة الى الباب الذي فتح فجأة فرأى منظرا كان خليقا ان يُمتعه لو لم يكن يجلس امام مُحَقّق يحاول ان ينال من اصراره على الرفض.

كان جندي يضع على عينيه نظارة بيضاء يجلس مجندة في حضنه فبدت كطفلة، اذ كانت ضئيلة الجسد لولا ثدياها المنتبران خلف (بلوزة) ذات لون اخضر داكن. وكان الجندي يداعبهما في نزق. لا شك في أن هذا المشهد يدخل في اطار الموقف الذي يتعرض له، ومن يكره ان يعيش طليقا وان يستمتع بحياة سعيدة، فمازال بعدُ في مقتبل العُمر لم يتخطّ عتبة الثلاثين من عمره. كانت له هو أيضا حبيبة ذات يوم ثم تزوجت بعد اعتقاله بأربع سنوات، ولعله أحسّ ارتياحا لأن ضميره كان سيعذبه وهو يراها تعنس في انتظاره دون طائل. لم يحاول يوما ان يقبلها لولا انها شجعته على ذلك، وربما ارادت ان يسرع في الاعداد للزواج حين يشعر انه ملزم بالاقتران بها بعد ان يمتزج الجسدان مثلما يتّحدث المشاعر. وكانت تحب من الفاكهة الدراق، فيذهب خصيصا الى قرية (بيت أمّر) كي يحضرها لها ريثا ندية. اذ كان صديقه جابر يستدعيه في موسم الإثمار، ولولا ضغط التقاليد لحثّها على مرافقته الى تلك القرية لتقطف الدراق باصابعها الملساء اللدنة، ولكنه لا يسمح لنفسه بذلك قبل ان تصبح زوجته امام الناس! فتبدو السعادة في عينيها السوداوين وتقول في مرح: لو أخبرتك بما أحب من الاشياء الأخرى فستتعب كثيرا بعد زواجنا.

ورأى نفسه مع طائفة من الشبان والشابات يخوضون في بركة تجمعت فيها مياه الشتاء حين كانوا في رحلة قامت بها أسر متجاورة. فعضّها سرطان كان يسبح قرب قدميها، وسالت من الكاحل الأيمن نقط قليلة من الدم، فشد الجرح بيده حتى توقف، وقد أحسّ للملمس جسدها بما يشبه الكهرباء تسري في أعصابه ولم يفارق ملمس الساق البضة خياله بعد ذلك.

- ما قولك الآن؟ هل تعود الى السّجن لِتَتَعَفّنْ فيه ثماني سنوات أخرى؟!.

حدّق الى المحقق في فتور كمسافر متعب، ثم أجاب متسائلا:

- الا ترى انك تساومني على كرامتي! اذ كيف سيكون شعوري بيني وبين نفسي حين يجلدني الضمير كل يوم لأنني قبلت الرحيل عن الوطن الى غير رجعة؟!.

- قد نسمح لك بالعودة بعد خمس سنوات اذا لم تسيء الى أمننا.

فأجاب (عماد) على الفور وكأنه وجد أمرا يبحث عنه:

- هل تمهلني الى الغد كي افكر في الأمر مليّا في هدوء؟.

فنهض المحقق واقفا وصافحه في بشاشة وهو يقول:

- إذن نلتقي غدا.

وأجال النظر في اركان الزنزانة فداخله شعور جديد وكأنه يدخل بيته بعد غياب غير قصير. ثم امتدت يده تحت البطانيات التي ينام عليها وأخرج خارطة فلسطين التي كان نحتها من خشب الزيتون. وراح ينقل عينيه بينها وبين الكوّة ذات القضبان الصفراء، لقد وعد امّه باهدائها الخارطة حين تحضر لزيارته في المرة القادمة وها هو يفي بالوعد فينجز صنعها. وتراءت له امه بعين الخيال بثوبها الاسود المطرز على الصدر والحواشي وبالمنديل البُنّي الذي يغطي شعرها وقد بهت لونه ... كم رددت على مسمعيه انه ابن ابيه، هل ينسى فرحتها يوم جاءها يحمل شهادة الصف الاول الابتدائي وكان ترتيبه الثالث، فأطلقت زغرودة طويلة ثم احتضنته في حرارة واجلسته بجانبها وهي تقول:

- اقرأ لي علاماتك يا حبيبي.

فقرأها في أناة، وكان كلما قرأ علامة نظر اليها مزهوا فتجذبه الى صدرها وتقبله قبلتين. «هذه مني وهذه من ابيك! ليته عاش فيراك وقد اصبحت شابا جميلا».

ثم تسرع الى الخزانة وتريه صورة أبيه بلباسه العسكري وكوفيته البيضاء المجدولة من الخلف، وعلى الكتف تتدلى بندقية طويلة ... كان ذكيّا هو أيضا كما أنت الآن. فقد حسب نفقات البيت

Digitized by Birzeit University Library

الذي بنيناه وهو مستلق الى جانبي مساء، حتى اذا جاء مقاول البناء في اليوم التالي ليتقاضى الأجر، اخبرته بالحساب الذي أقره ابوك، فلم يقتنع في البداية، ثم أعاد الكرة فكان حسابه مطابقا لحساب ابيك. الا ان اباك لم يحمل مترا حديديا ولم يدر حول البيت من الخارج ولم يتفقد داخله كما فعل المقاول!.

على انني لم أرث ذكاءه وحسب بل تعلمت منه التضحية ايضا ... كان في العشرين من عمره حين حمل السلاح دفاعا عن (الرملة) المدينة التي ولد فيها ونشأ فنفاه الانجليز الى سوريا ولم يلبث حتى عاد بعد شهر متسللا ليحمل السلاح من جديد، فاعتقل ثانية وحكم عليه بالسجن المؤبد.

- لقد شرب ابوك من بئر الغزال المسحورة ... هل تعرف معنى ذلك؟. .

- لا يا أمي!.

كانت تردّد هذا السؤال في اوقات متباعدة حتى بدا لي كأسطوانة يصعب أن تبلى. وكان يسرها انني ارغب في سماع حديثها ولو مكررا، فتعيد على مسمعي تعليل الخبر من جديد ... كانت تصوغه في كل مرة صياغة مختلفة، اذ بدا في نظرها يقينا، فاستقر عميقا في واعيتها، فكانت تقلبه على نحو مختلف كلما القته وكأنها تأنف من استعادته في صورة واحدة؛ لئلا يفقد تأثيره في نفسها قبل أن يخبو بريقه في اذهان السامعين.

- ان هذه البئر يا حبيبي تقع قرب مدينتنا (الرملة)، وهي مسكونة (بعامورة) تظهر في صورة فتاة ساحرة الجمال، وكل من شرب شربة من البئر لا بد من ان يظل قريبا منها هو وابناؤه لأنه سيحسّ بالعطش الى مائها بين الفينة والأخرى. ومنهم من سقته العامورة من يدها العطرة.

- وهل استطيع ان اذهب الى تلك البئر لأرى العامورة؟.

- يبدو انك نسيت اننا ممنوعون من الوصول الى الرملة، ولكنك ستراها يوما. انني واثقة من ذلك لأن أباك شرب من بئرها! ثم تستغرق في تطريز قطعة من القماش الاسود لتتقاضى عليه أجرا من امرأة مجوز تعمل مع زوجها في بيع الصدف والتحف المصنوعة من خشب الزيتون، والتطريز الشعبي.

- تلك ذكريات استعيدها كومضة، ولكن لها قوة المغناطيس، فكيف يمكن الافلات منها.

وتراءى له وطنه كهيئة سهل مخضوضر ممرع، فأحس حنينا جارفا الى معانقة كل موضع فيه.

- فأي اغراء يمكن ان يقنعني بالتخلي عن الوطن! قال ذلك وقد داخلته البهجة كمن امسك بحاجز قبل ان يوشك على السقوط ... ألم تقل له أمه انه إبن أبيه الذي شرب من البئر المسحورة؟!.

٤ قصص قصيرة جدا

تيسير عبد العزيز!
غزة

سادية

لاحقته عيونهم النهمة فأسرع خطاه ثم راح يعدو مرتبكا على الرصيف فسقطت حقيبته المدرسية ... ازدادت سرعة السيارة بمحاذاة الرصيف ... صرخ الطفل مستنجدا ... فرملت السيارة وفتح احدهم الباب الخلفي وامتدت يد قوية اطبقت على كتف الصبي المذعور ...

انطلقت السيارة تنهب الارض نهبا حتى وصلت مشارف المدينة المطلة على الصحراء الواسعة ... قرص الشمس الملتهب يتوسط السماء ويرسل اشعة حارقة تلفح الوجوه ... همدت حركات الصبي المتموجة وانقطع عويله ... كان جسده الغض، الضعيف يرتعش كحمامة مذبوحة ... توقفت السيارة في العراء ونزل الوحوش الستة بصيدهم الثمين. امسك اثنان بالصبي وراحا ينزعان ملابسه، قام اخران بنصب خيمة بعجالة وارتبك وانشغل الخامس باعداد مشروب بارد منعش ... اما سادسهم فقد باعد ما بين ساقيه وراح يتبول ونظرات الصبي الخائفة ... تلاحقهم واحدا واحدا، شربوا نخب هذا الصيد وبسمة وحشية تعلو شفاههم الزرقاء. ثم تعاقبوا على الصبي في جوف الخيمة ... تعاقبوا مرات وقد اطاحت الخمرة بعقولهم فأخذوا يتراقصون وضحيتهم غارقة في دمها تلفظ انفاسها الاخيرة.

نشبوا في رمال الصحراء الساخنة حفرة ... القوا بجثة الطفل فيها واهالوا التراب وبالوا جميعا في وقت واحد على موضع رأس الضحية!!.

عادوا قبل منتصف الليل بقليل الى بيوتهم الفاخرة وقصورهم العامرة ... قبلوا اطفالهم النيام، وداعبوا انوف زوجاتهم اللواتي كن ينتظرن عودتهم بنفاذ صبر للقيام بواجبهم الزوجي ... غير انهم

Digitized by Birzeit University Library

سرعان ما ذهبوا في سبات عميق، واثار تلك البسمة الوحشية لاتزال على شفاههم الزرقاء.

العيون الزرقاء

قال لزوجته ذات الشعر الاصفر والعينين الناعستين: اخيرا اصبحنا اسياد العالم دون منازع!! انتصرت فكرة الديمقراطية الحرة واصبحت شعوب الارض تدين لنا بالولاء والطاعة! انهارت "امبراطورية الشر" وتهاوت فكرتها الى الابد وصارت من مخلفات التاريخ كعظام الديناصور.

قالت الزوجة بشيء من غباء ازعجه: ولكنهم هناك لازالوا يتحدونكم؟!

رد بغضب عاصف: لن يلبث ان يركع طالبا الرحمة ... سيلقنه فتياننا ذوو العيون الزرقاء درسا في الطاعة لن ينساه.

استدركت الزوجة وهي ترتعد: لا تنسى انهم عادوا اكثر من مرة في تواديت محمولة في بطون الطائرات واخشى ان صحراء الشرق الملتهبة ان تكون ارحم عليهم من غابات فيتنام.

صفعها بشدة ... ولطم صدره بقبضة يده ... قال من بين اسنانه: سنرى! في صباح اليوم التالي، حملته طائرة عملاقة مع المئات من ذوي العيون الزرقاء، الى جحيم الشرق، وما ان وطأت قدماه رمال الصحراء، حتى تأوه كخنزير مشوي، ولم تمض ساعات حتى اغمي عليه ... نقل الى مستشفى عسكري مجهز بأحدث الادوات، بيد انه فارق الحياة قبل ان تقترب منه طبيبة شابة كانت تجلس هناك تطالع مجلة اجنبية، وتبتسم لضابط وسيم يغازلها.

شجرة

حين يرخي الليل سدوله، ويكتنف الاشياء في القرية وفي البيت ظلام دامس، ويسود هدوء مطبق، وتنام الطفلة: تدسل المرأة من فراشها الدافىء، تنزع ثيابها وتندس تحت اللحاف الى جواره ... زفيرها الحارق يلفح صفحة وجهه الاسمر ... تسري الدماء حارة، متدفقة في عروقه ... يسرق لحظات لذة مبتورة من جسدها الثائر الفتي، وحدها هذه المرأة الوفية، تحاول ان تخفف عنه الامه، تعوضه بعض ما افتقده طوال ثماني سنوات عجاف.

في الصباح، يسافر الى المدينة صامتا، مكتئبا يتأمل الاشياء من حوله، وكأنه يراها للمرة الاولى ... نظراته تائهة، واحساس قاتم حزين يختلج في صدره ... يقف في طوابير طويلة امام بعض الوزارات والمؤسسات ثم يقفل عائدا بخفي حنين الى قريته.

يتناول غذاءه، ثم يخرج الى الحقول هائما، مفكرا وقد تشابكت ذراعاه خلف ظهره .. لم يكن قد تماثل للشفاء تماما، حين جاءته دعوة للتطوع في صفوف الجيش الشعبي ...

انها الحرب اذن، تطل بوجهها البشع من جديد، يحملق في الفراغ ساهما، شاردا يحمل سلاحه ويخرج دون ان يودع زوجته او يقبل طفلته ...

عند باب الدار ... وقفت تشيعه ودموعها الصامتة تبلل وجهها المليح ... تشد بقوة لا ارادية على يد ابنتها الصغيرة الواقفة بجوارها ... وحين يختفي مع العشرات من ابناء القرية عند الافق ... تعود الى دارها... تغلق الباب بعنف ... وتقعي هناك تحت دارها شجرة معمرة في ساحة الدار ... يدها على خدها، وطفلتها تلتصق بها ... وطائر اسود ينعق على اعلى الشجرة!!.

لحظة غضب

تكورت لحظة غضب قاتمة على شفتيه ... بصق فاكفهر وجهه المتغضن ... كتم غيظه لكن صدره جاش بانفعالات كاسرة مزقت احشاءه، اراد ان يفرج عن طاقته المكبوتة ... ان يطلق الذئب الذي يعوي في داخله، ان يحطم المذياع ... او يقذف بالكوب الفارغ بعيدا نحو الحائط ...

كانت به رغبة عارمة في الصراخ او تحطيم شيء ما ... غير انه لم يفعل ... ادار مفتاح المذياع من محطة لاخرى، حتى استقر على راديو مونت كارلو ... كانت الساعة تشير الى الثانية بعد الظهر، وكان عائدا من جولته اليومية بحثا عن عمل ... مرهقا، جائعا، متخفزا ... جاءه الخبر كالصاعقة ... طلائع القوات المصرية وصلت مدينة حفر الباطن ... اطلق شتيمة بذيئة وصرخ مناديا زوجته التي هرعت اليه متسائلة مدهوشة ...

طلب ان تجمع له اي شيء في المنزل يمت بصلة الى مصر ... كتب نجيب محفوظ، كاسيتات الشيخ عبد الباسط، جلبابه القشفاض، شهادته الجامعية ... الصحف والمجلات ووثيقة السفر الزرقاء ...

جمع هذه الاشياء كلها وغيرها في كومة واحدة، وسكب قليلا من الكيروسين والقى عود ثقاب فارتفعت ألسنة اللهب ... وارتفعت معها قهقهة هستيرية ... انطلقت من اعماقه الجريحة وسرعان ما اغمى عليه.

Digitized by Birzeit University Library

عاشق الزيتون

حسن عبد الله

اطفأ السجان المناوب الانوار، فأخذ كل واحد من المعتقلين يسوي برشه استعدادا للنوم... هذا يعدل من وضع بطانياته.. وهذا يمسك «مخدته» في حين يخلع ثالث قميصه ويضعه جانبا ... ومعتقل رابع يتدبر طريقه في الظلمة للوصول الى دورة المياه، بينما يقول خامس لرفاقه- تصبحون على خير بعد أن تمدد على فراشه وتهيأ لقضاء ليلة إعتقالية أخرى تضاف الى المئات التي سبقتها.

وما هي الا دقائق قليلة حتى يسكن كل شيء، فالرفاق جميعا قد هجعوا، كل في مكانه، فاختلط صوت الشخير مع طقطقات حذاء السجان الذي يروح ويجيء في الممر الممتد امام الزنازين، مسليا نفسه في وحدته، أحيانا بترديد مقاطع من اغنية عبرية بصوت نشاز، وأحيانا أخرى بمراقبته الزنازين من فتحات الابواب.

تقلب خالد على "فرشته" الاسفنجية المهترئة، مرة يجرب النوم على جنبه الايمن، ثم على الجنب الايسر، فالايمن مرة أخرى، ثم يحاول على الظهر والبطن... لكن هيهات فكلما حاولت عيناه الامساك بالنوم او امساكه بها، تفشل المحاولة ويعود ليبحلق في سقف زنزانته او في رفاقه النائمين حوله.

قال في نفسه" يبدو انه بيني وبين النوم هذه الليلة مسافة طويلة، واعتقد ان لا فائدة من الاستمرار في معاركته".

رفع ظهره عن "فرشته" واتكأ الى الحائط، وتناول سيجارة واشعلها، وما ان سحب النفس الاول منها، حتى رأى رفيقه جهاد قد ازاح عن جسمه البطانيات ونهض وتوجه نحوه قائلا بصوت منخفض:-

- لقد شجعتني على النهوض، واظن أن حالي لا يختلف عن حالك هذه الليلة.. حاولت مع النوم مرات عديدة، لكنه بدا لي صعب المنال.

- إجلس هنا بجانبي... وهذه سيجارة مكافأة لك على نهوضك من فراشك لتسليتي، فبالتأكيد انت بلا سجائر الآن، لانك تنفض على مخصصك منها في ثلاث ساعات، وتقضي بقية يومك "سيجارة من هنا وأخرى من هناك".

أخذ الاثنان يسحبان انفاس سيجار بينهما بشهية، بينما راح رفاقهما في سبات عميق، فهنا فايز يعلو بطنه وينخفض، صعودا وهبوطا مع حركه الشهيق والزفير، وايمن قذف بالبطانيات جانبا من شدة الحر، اما ماهر فتمتم بكلمات غير مسموعة تشير انه يخوض غمار حلم ثقيل.

أمعن جهاد النظر في الصورة الاعتقالية المجسدة على ارض الزنزانة... ثم توجه لرفيقه قائلا:-

- على غير العادة يا خالد نسيت ان اسألك عن زيارتك... فيبدو ان انهماكنا في استقبال الرفاق الجدد قد اشغلنا عن الحديث في شئون زيارات الاهل وأخبارهم.

- أخبار الاهل لا بأس بها... زارني الوالد وتحدثنا في مواضيع أسرية متعددة "عن همومه" عن الارض" والزيتون... وعن وحدته... وأخبار أخوتي في الخارج... وصدقني لاول مرة طيلة فترة اعتقالي الطويلة اشعر بتعاطف من نوع خاص معه... تعاطف امتزج بالتقدير والحب والاشفاق والانشداد والخوف... فها هو قد انهى النصف الاول من الستين ويتحمل وحيدا مسئولية الارض، نتيجة غياب الابناء الاربعة عن البيت... في هذه الزيارة اشفقت بالفعل على وحدته، مع العلم انه لو سمعني الفظ كلمة الاشفاق لاقام الدنيا واقعدنا" فهو يرفض هذه اللفظة... تصور انه تحدث معي بمرارة وبشعور شديد بالاهانة، لان سمسار من القرية حضر الى البيت وقال له من باب المساومة.

- الى متى ستظل يا حاج جميل متمسكا بالارض... انت وحيد واولادك الثلاثة موزعين على ثلاث دول، والرابع ما ان يخرج من الاعتقال حتى يعتقل مرة أخرى... ليس دماغك وخذ بمشورتي، بع هذه الارض واسترح، فانا اعرف مشتر يده سخية وعلى اتم الاستعداد لدفع السعر الذي تحدده ونقدا ... بع واسترح في شيخوختك، فالارض متعبة اليوم وتحتاج الى سواعد وشباب...

- وماذا كان رد والدك؟

- طرده شر طردة، وامطره بما تيسر من اللعنات والمسبات، فوالدي حساس لدرجة كبيرة من إثارة موضوع بيع الارض معه، لان ارتباطه بها عميقا، بدأ منذ نعومة أظفاره، لقد جبل بها وجبلت به بالفعل... الارض بالنسبة له موضوع حياة أو موت... كيف لا؟ وله معها قصة طويلة... اجل طويله يا جهاد.

-انا تواق جدا لسماع هذه القصة.. واحب ان ترويها لي بصوت منخفض كي لا تنزعج الرفاق في نومهم

-انا جاهز، وعلى اتم الاستعداد.... اسمع ايها الرفيق:-

Digitized by Birzeit University Library

*****

توفى جدي بالسكتة القلبية اثناء نقله الماء على الحمار ليسقي شجيرات الزيتون التي غرسها حديثا، وترك وراءه زوجته أي جدتي ووالدي الذي كان عمره لا يتجاوز الاثني عشر ربيعا، حيث وضعت الوفاة المفاجئة على كاهل الاثنين مسئولية مساحة كبيرة من الاراضي المزروعة باشجار الزيتون.

اجل الزيتون، فقد كان جدي مغرما بالزيتون، ويعتبر هذه الشجرة أفضل انواع الشجر واكثرها بركة، فهي تعمر طويلا، اضافة الى ان زيت الزيتون من ضروريات الحياه للفلاح، وعلى هذا الاساس اعتنى باشجاره، اعطاها كل ما يستطيع حتى صارت مثالا للعطاء والاخضرار في القرية.

وبعد وفاته كثرت في القرية التفسيرات وتعددت التنبؤات حول مصير الارض ومستقبلها فأبو علي اقسم اغلظ الايمان، بأن الارض "عائلة الشولي" سيمسحها الشيطان وسيدب في زيتونها الخراب بسبب الاهمال وغياب اليد الخبيرة القادرة على التعامل مع الاشجار المعتدة على طولها وعرضها أما ابو مصطفى فقد أمر في احدى جلسات السمر بأن جميل لا شأن له بالارض فهو ولد عوده غض، ولا يستطيع تحمل المسئولية، وعندما تتفتح عيناه على الحياة والنقود والرفاهية، سوف يبيعها ويبعثرها بين فلان وعلان".

وعندما نقلوا لجدتي ما يشاع في القرية من أقاويل بشأن الارض قالت:-

نحن وانت والزيت يا ابو علي " فلا يحرث الارض الا عجولها" وستسمع أيها "البوم" بعد شهور قليلة ما سوف يزعجك.... وانت يا ابو مصطفى فان تنبؤاتك ستداس تحت حنافر بغلتنا التي لن تتوقف مهما كانت الظروف عن حراثة أرضنا وتسويتها.

وفي الحال خرجت من البيت الى الحارة حيث كان والدي يلعب مع أقرانه وعادت به الى البيت والقلق يعتصر وجهها الذي ظل محافظا طيلة السنوات المنصرمة القاسية على اشراقته وحيويته. أجلسته بقربها... تغرست ملامح وجهه، بينما ظل صامتا ينتظر بفارغ الصبر أن تبدأ حديثها، فقد أحس أن شيئا هاما يدور في خاطرها، لكن بدل شروعها بالحديث مباشرة، مدت يدها الى رأسه وراحت تمرر أصابعها بين شعراته وتتمتم بكلمات غير مسموعة:-

- ماذا جرى يا والدتي؟- أراك قلقة ومهمومة، وكأنك تحملين على ظهرك كل أعباء الدنيا.

- نعم يا ولدي، اني قلقة، وفي غاية القلق.

- لماذا؟ بربك اخبريني لماذا؟.

- أتدري ماذا يقولون عنك في القرية.

- ماذا يا أمي؟.

- يقولون أنك عندما تكبر ستبيع الارض، لانها لا تعنيك في شيء.

- من قال هذا؟.

- ابو علي وابو مصطفى وغيرهم.

- تبا لهم.

- اسمع يا ولدي، أرضنا أمانة غالية تركها لنا والدك... هذه الارض أحبها كما أحبنا تماما، كانت بالنسبة له كمقلتي عينيه، حافظ عليها دائما... فهل نسمح لاحد بأن يمس مقلتي عيني والدك؟.

- كلا يا أمي والف كلا، صحيح أنا كنت اتهرب من العمل مع والدي عندما كان حيا، واتوق للعب مع الاولاد، لكن ارضنا يا والدتي ستظل خضراء، هذه آخر جملة نطقها والدي، وانا ملزم منذ الان بتنفيذ وصيته شريطة الا تظلي حزينة.

- لكنك وحدك لا تستطيع.

- سأحاول يا أمي

- ان اتركك وحيدا، سأقف معك، قدمي وقدمك، يدي ويدك... علينا ان نبدأ انتبه الى كل حركة أقوم بها وتعلم، تعلم يا ولدي بسرعة... تعلم تركيب الاشجار وتقليمها، والحرث وعزق الحبوب... هذا هو الاسلوب الوحيد الذي به نحافظ على الامانة.....

وهكذا يا رفيقي العزيز سارت الاوضاع بعد وفاة جدي، شمر الوالد والجدة عن سواعدهما، وصارا يفيقان مع طلوع الشمس، يجهزان البغلة، ويعدان زوادتهما ويمضيان للارض، يعملان بجد ونشاط حتى المساء ثم يعودان وقد هدهما التعب، لكن سعادة عارمة تغمرهما، لنجاحهما في اداء الرسالة كما أوصى الجد ومع مرور السنين ترعرع والدي في احضان الارض، اعطاها بسخاء، فبادلته عطاء بعطاء، ولم تبخل عليه يوما، فجرت في داخله الرجولة، فراحت أمواجها تهدر في اعماقه، طاقة جبارة تدفعه بقوة الى العمل والعمل.

تلاحم مع التراب المجبول بالعرق، فتداخلت عناصر ثلاثية لمعادلة، النتيجة الحتمية لتفاعلها الخصوبة،فالارض كالمرأة تزداد التصاقا وتمسكا بالانسان الذي تشعر بدفئه وحنانه، والعرق لا يتقاطر من الجبين الى ذرات التراب الا اذا توطد وتجذر التلاحم بين الاثنين - الانسان والارض.

انها عناصر ثلاثية متداخلة يا رفيقي، عندما تتماسك مع بعضها البعض يتسع رحم الارض، وتبدأ ولادة مستمرة.

خصوبة الارض حقنت شرايين والدي، اصبحت تنبض في دمه، فراح يفكر جديا بالزواج وانجاب الاولاد، يريدهم كثر... يتراكضون ويلعبون في احضان الارض ويدغدغون صدرها باصابعهم الغضة، ويشبون في رحابها... يريد اولاد يحبون الارض ويعشقونها حتى نخاع العظم..... ومن هي التي تنجب له هذا العدد الذي يفكر به من

Digitized by Birzeit University Library

الاولاد؟... ومن هي التي ستشاطره حب الارض ؟.... ومن هي التي تتقن التكلم بلغة الارض... لغة الحرث والعزق والرمي والتقليم والتعشيب. طال تفكيره... وكثرت اسئلته... هل تستطيع فلانة... وهل شروطه تنطبق على ابنة الجار، أم على ابنة علي يوسف.. أم.. أم، لكن جدتي قبل وفاتها بعام واحد قد أخرجته من حيرته ووضعت تحت قدميه قارب النجاة من الشرود، وطلبت منه الابحار الى بيت سعيد ابو عيد ويطلب يد ابنته فاطمة التي تتصف بالاخلاق وقوة البنية وحب الارض... لتصبح فاطمة بعد شهرين زوجته، تشاطره افراحه واتراحه، وتعيش فصول قصته مع الارض لحظة بلحظة، وتحول له احلامه في الانجاب الى واقع.

*****

عفر التراب وجوهنا ولوحت اشعة الشمس اجسادنا منذ نعومة اظافرنا... لحقنا بأمنا مثل فراخ قبره.

كان والدي يشعر بنشوة وهو يشاهدنا نركض ونلعب بين اشجار الزيتون، لانه راى فينا التواصل، الاستمرارية، الخصوبة، السياج العفوي الذي سيحمي الاشجار ويرعاها.

ولما جرى دم الشباب في عروقنا، حملنا عنه وعن الوالدة جزءا كبيرا من مسئولية الارض... كنا مجرد الانتهاء من يومنا الدراسي، نتوجه مسرعين للحاق بالابوين، كما أن عطلنا المدرسية تحولت الى محطات عمل وانتاج،... الى أن...(توقف خالد عن الحديث فجأة، وتحسس السجائر القليلة المتبقية، أخرجها من جيبه واعادها الى مكانها ثم أخرجها ثانية، وكأنه حسن الامر، الليلة تدخين وغدا لكل حادث حديث، وليذهب المخصص الى الجحيم، قدم سيجارة أخرى لرفيقه واشعل أخرى، وقال مخاطبا جهاد لقد اطلت عليك وسهرتك معي، اقترح أن تنام وغدا سأكمل لك انا شئت، فلا أريد ان اطأ حدود جزيرة الاحزان).

- مانا تقول... أحزان... مانا تعني بجزيرة الاحزان هل تريدني يا صديقي ان اكمل بقية القصة وانا احلم بالحاج جميل وزيتوناته... لا يا عزيزي، النوم طار من عيوني كعصفور مفزوع واكثر الاحتمالات انه لا ينوي الرجوع... فانت سحبتني من"فراشي" وسافرت بي، وجعلتني أطير في الفضاء، واحط بين اشجار الزيتون، اتحسس اغصانها وجذوعها كما يتحسسها الحاج جميل، لقد قوت قصة والدك في الانشداد للارض... أرضنا التي تتحوطها الذئاب من كل الاتجاهات، وتتربص الفرصة لانتزاعها كاملة من بين ايدينا، بعد ان انتزعت الجزء الاكبر منها ومزقته بانيابها ووزعته على الجراء المتلهفة خلفها، بينما يشتهي اصحابها الحقيقيين الفاكهة التي كانت مكدسة بالامس القريب في بيوتهم... يشتهونها وينظرون لها كأمنية بعيدة المنال.

- اذن لديك رغبة في متابعة بقية قصة الحاج جميل.

- نعم يا رفيقي وباصغاء شديد.

- وإن دخلنا حدود الاحزان

- انت تشوقني هكذا اكثر واكثر.

*****

استمر وضعنا الاسري على احسن حال، الى ان اصيب الوالد بمرض خطير في عينيه، اضطره للتنقل من عيادة الى عيادة، ومن مستشفى الى أخر من أجل انقاذ نظره، لكن بلا جدوى، فقد كانت النتيجة مؤلمة للغاية، جلبت معها الدس والحزن، ووضعته بين اركان بيتنا، فانقلبت سعادتنا الى وجوم... تعطلت رؤيته، أصبح كفيفا.

وكان لهذه الحادثة المؤلمة وقعا شديدا عليه، في البداية لم يستوعب ما جرى، الارق والحسرة اشعلا في داخله حريقا، وحرماه من النوم ليال طوال.... يظل جالسا في فراشه حتى الصباح يفكر بقلق في وضعه الجديد:-

"اصبحت أعمى يا فاطمة... لا ارى الارض، ولا أرى وجهك ولا وجوه الاولاد" " كيف سيكون بمقدوري مواصلة العمل في الارض.. كيف اراقب شجيرات الزيتون وارعى نموها يوما بعد يوم، وكأنها اولادي الذين انجبتهم من صلبي"

"آه يا فاطمة،لا شيء في الدنيا يعادل الرؤية، دونها يصبح الانسان يدور في سرداب مظلم يتحسس طريقه مترددا مرتبكا"

بقي على هذا الحال مدة ثلاثة شهور.... وفي احدى الامسيات جمعنا حوله وقال:-

- يا اولادي الاحباء... تعلمون جميعكم ما الم بي... فكرت في وضعي طويلا... وتوصلت الى قرار حاسم ونهائي.

وفي الحال خرجت جملة واحدة، وفي نفس الوقت من حناجرنا جميعا:-

(ماذا قررت ان تفعل يا ابي)

- هل تعتقدون ان ابائكم سيستسلم لهذا التحدي... الارض تناديني... كل زيتونة من زيتوناتنا تلومني على انزوائي وحيرتي... تلومني لجلوسي في البيت ضعيفا. بينما تتقاذف جسمي امواج الحزن، لكن لا يا فاطمة، لا يا اولادي، لن اجلس هنا قعيد البيت... سأقاوم .. وقديما قالوا "الاعمى هو اعمى القلب والبصيرة وليس أعمى البصر".. وقلبي ليس بأعمى، انه ينبض بالحياة، والدماء تتدفق في شرايييني حارة... باختصار لن اسلم،ولن أضع يدي خلف ظهري، واجلس قعيد البيت أندب حظي.. من الغد سأكون معكم في ميدان العمل.

*****

دخلت قصة والدي مع الارض مرحلة جديده:-

في بادىء الامر كانت والدتي تضع له السرج على الحصان

Digitized by Birzeit University Library

وتقوده حتى يصل الارض... وهناك تساعده على النزول،وتبدأ عملها مباشرة ... وحين نعود من المدرسة نلحق بهما... ومع وصولنا تنهال علينا توجيهات الوالد:-

- خذ المقص وقلم الاشجار، لكن بدرايه ولطف، فالزيتونة يا ولدي كالطفل ينبغي التعامل معها بانتباه ورقة... فهل سمعت عن طفل يطرب للخشونة.

- وانت يا مجدي وزع المياه على الفرسات الجديدات بالتساوي ثم اذهب الى القرية لتملأ البرميل الاخر،ليبقى عندنا احتياط دائم من الماء.

- اما معتصم فاعطيه يا فاطمة الفأس ليقتلع الاشواك والاعشاب، ويجمع ما يصلح منها لنحمله معنا مساء للاغنام.

- اما انت يا سارة فلا تجهد نفسك كثيرا، ازيل الحجارة الصغيرة من تحت الاشجار، وعندما تشعرين بالتعب، تظللي تحت الزيتونة الكبيرة. ولما يتأكد من ان العمل يسير في الاتجاه الصحيح.. يقوم بجولة استطلاعية يستنفر فيها باقي حواسه الاخرى خاصه حاسة اللمس... ينتقل من زيتونة الى اخرى يقرفص قرب الجذع ويتحسس التراكيب، يبدي استحسانه على بعضها، ويعطي ملاحظاته على البعض الاخر... كأن يقول هذه التركيبة بحاجة لتثبيت والثانية من المستحسن اضافة قطعة قماش لها...

*****

بقينا بجواره الام واولاده الاربعة وبناته الثلاث حتى اكملنا دراستنا الثانوية الواحد تلو الاخر، فارسل الاخ الاكبر ليتعلم الهندسة في مصر، وارسل اخواي الاخرين الى العراق، واحد درس الطب والاخر الحقوق. ولما نشبت حرب ٦٧ أو كما نسميها نحن (هزيمة الانظمة العربية الرجعية)، لم يكن بجانب والدي من ابنائه سوى انا واختي سارة، حيث تزوجتا الاختان سميرة وسلمى في سن مبكر... وعندما انهيت دراستي الثانوية بتفوق... قالت له امي:-

- يا ابو اسعد، الاولاد الثلاثه اكملوا تعليمهم وحصلوا على شهادات عالية وهذا يكفينا، وخالد من المفروض ان يظل هنا، فلمانا نقذف به الى الغربة.

فرد عليها ابي غاضبا :- هل تريدينني ان اظلم الولد؟

- لم اقصد هذا يا حاج، لكن حبذا لو ابقيت لي خالد، فاخوته لا اراهم الا مرة واحده في العام او العامين... يحضرون كالضيوف ويسافرون دون ان اشبع نظري منهم.

- لا تحزني، فاولادك سيعودون يوما مهما طال الزمن، وخالد يجب ان يتعلم، "العلم نور" يا فاطمة.

- والارض يا حاج

- الارض من المفروض ان لا تقف عثرة امام مستقبل خالد،لان تعلمه سيكون لصالحها... سأدبر الامر.. وعلى كل حال، ليست المرة الاولى التي اقف فيها امام امتحان صعب..... لا تتردد يا خالد. اختر يا ولدي الدولة التي ترغب ان تتعلم فيها، فزيتوننا ما زال بخير وسوف لا ابخل عليك، كما ان اخويك في الخارج يبدون استعدادهم لدفع كافة تكاليف تعليمك.

*****

اخترت موضوع الزراعة فلاقى هذا الاختيار استحسان الوالد، وسافرت الى لبنان... وانت تعرف يا عزيزي بقية قصتي التي وجودي هنا امتداد لها.

- آه يا صديقي ما اعظم والدك، انه نموذج في الارادة والتصميم... لقد شوقتني لزيارته والتحدث معه بإسهاب بعد تحرري.

- لا تقلق يا جهاد، بقي لتحررك ثلاثة شهور، وسوف تجده بعد يوم او يومين من خروجك من المعتقل أمام بيتكم.

- أمام بيتنا... كيف؟

- هل نسيت يا جهاد انه لا يترك رفيق يخرج من عندي، الا ويذهب لزيارته، فهو يفخر بامثالنا... ويقول انهم ضحوا من اجل الارض، وهم يستحقون كل احترام... اضافة انه يعتبر ان السجن يفولذ الرجولة داخل الانسان، وهو يعشق الرجولة الحقة.

- سأكون بالفعل في غاية السعادة.

- وسعادتك ستكتمل عندما يقدم لك هديته المحببه = تنكة من زيت الزيتون = فوالدي يعتقد ان لا هدية تضاهي زيت الزيتون... وهو يرد بامتعاض شديد على الوالدة، عندما تحتج على هذا التكرار وتنصحه بعلبة شوكلاتة حملها اسهل عليك يا حاج، ولا تضطر للاستعانة بالناس لانزالها من السيارة او لايصالها للمكان الذي تريد".

- ماذا تنفع الشوكلاتة يا فاطمة لانسان عانى من سوء التغذية فترة طويلة... زيت الزيتون يقوي عظام الشباب، فاذا قويت عظامهم، قويت عظام الوطن واستعصت على الكسر.

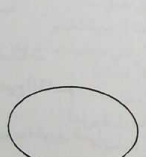

Digitized by Birzeit University Library

٣ رسائل

يوسف شحادة

مقاومة ...
الى معين بسيسو

كيف احتضنت غزة البحر
بخمسة وخمسين رحيلا
وسقيت بحر عينيك برملها
ونمت؟!
واكتشفت ان نخلها سيأتي
بذراعيه
وكمشة من الرمل
وبحر من حجر؟!
كيف تزوجت شواطيء الزمان كلها
مبتدءا
وزوجتك غزة اصدافها
سنبلة ... على تماثيل العمر؟!
وكيف اقبلت على خطى
صهيل النيل
رائما
كريح من نشيد
وتلوت الفاتحة:
«قد اقبلوا فلا مساومة ...
المجد للمقاومة ...»

رسالة ...
الى سميح القاسم

لطفل يدق عقارب هذا الزمان الحرام
ويوقفها بحجر ...
لطفل يعيش على عطش وسهر!!
تدق دروب الجليل
نواقيس بحر الملاحم
وتمشي ...
وياتي النشيد الى كفر قاسم
رجالا فرادى ...
وبحرا من القمر المتساقط خيلا
تقاوم ...
انا لا اريد البكاء
على كفر قاسم
واطلاله
وانا لا اريد الغناء ...
ولكنني اقرأ الامس ...
تاريخ شمس
«ورسالة
الى غزاة لا يقرأون»

بحر ...
الى محمود درويش

لك ان تختفي
في سنابل قمحك والياسمين
لك ان تختفي
من غبار الزمان
لك ان تحتويني بقلبك
مثل جرار السكين!!
ولي ان ادافع عن ظلك
الميت
فوق رحيق الدخان!!

لك ان تشرب البحر
ثم تنام على جدول من رخام
ومضة ماء ...
فاخرج الان من صلوات دمي.
ودع البحر ياتي الي
عجوز صلاة يسوس السماء ..
احبك!!
لكن ...
احب غياب ظلالك
عن غربة البحر اكثر ..
فعذرا
دع البحر ياتي وحيدا
ويهدرا!!

يوميات مخيم الشاطيء

ماجد ابو غوش

-١-
على خاصرة البحر والريح
ينشد الصياد
اغنية جريحة!
-٢-
في الليل وفي عز الظهيرة
يسقط الموج على الرمل
جثة هامدة!
-٣-
قوارب الصيد
تغافل حراسها وترقص
على ايقاع البحر والمطر!
-٤-
في ايام منع التجول
يرسم البحر على الشباك لوحات
من الأعشاب والصوف!
-٥-
في كل ليلة
ينام الميناء
بلا بحر!
-٦-
في كل ليلة
تنام النوافذ حالمة
بالغائبين والفجر!
-٧-
في اليوم السابع
ياتي صبي يقبلنا جميعا
ويمضي!

Digitized by Birzeit University Library

(سيشيخ الزمن ... وغزة ستظل صبية)

محمد آل رضوان

كانت غزة ... في تلك الايام ... صبية
ذهبت ... في عرس الضوء الأول للشمس ...
لتغتسل بماء البحر ...
وتتدهن بزيت الزنبق ...
حين رأها «داجون» لأول مرة ...
عشق الحلوة «غزة» من اول نظرة ...
بان بها ...
فاختلطت «لام» البحر «بباء» البرية ...
يا غزة
كوني مرأة للنور ... وثغرا للحب ...
وكوني أبدية ...
ما دام البحر يضج كقلب المحبوب
تظل الغانية قوية ...
تتفتح بالزنبق ... والزيتون ...
وتتخصب بالليمون ...
وبالكلمات .. وبالانسان ...
ولن يقهرها .. ابدا .. قاهر ..
وبشيخ الزمن .. وتبقي الدهر صبية
غزة ...
انت مباركة ... لن يتركك الرب ..
ولن يهجرك ... العاشق «داجون» ..
فما دام البحر ... يدق كقلب المحبوب ...
وما دام الملح ...
يملح رمل الشاطيء ..
والأحلام تهدهد بين جناح النورس ..
يا غزة ...
سيشيخ الزمن ...
وتبقين علي مر الازمان صبية ...

على قبر دمشق

د. عبد العزيز المقالح *

«١»

دمشقُ التي قاتَلَتْ
ودمشقُ التي احترقَتْ
ثم عادتْ من النار، لم تحترقْ
كيف تحترقُ الآن في السلم؟
تفقدُ لونَ ضفائرها؟!
كيف يهجُرها «بردى»
وينامُ على قبرِها «قاسيون»؟!

«٢»

أيها القمرُ الذهبي - الذي كان -
كيف ترى طفلةَ الشامِ
يجلدها العابثون
فلا تتحرك أشجارُها الشامخاتُ
ولا حجر من «أميّةَ»
يا سيد الأفق .. رُدّ
ألا تستطيعُ؟
هل استعجمتْ في زمانِ الحروبِ الحروف؟!

«٣»

أيها المتعبون
الطريقُ طويل ...
واعناقنا لا تهابُ المسير
الخيولُ التي نمتطيها دماءُ قرانا
واحزانُ اجدادِنا
فاستريحوا
لأن الخيولَ الجريحةَ
ظامئة للمسير.

---

* من ديوان الخروج من دوائر الساعة السليمانية

Digitized by Birzeit University Library

بعض هموم أدبية

كيف يمكن مقاربة نص أدبي حديث لخبرة قديمة؟!

هذا سؤال يحمل اشكالية قديمة، جديدة، تظهر دائما في مراحل القلق الابداعي، الذي هو ارهاص لنهوض ابداع جديد، يحمل سمات مختلفة، مغاير للمألوف، كاسر للعادي، مهشم للمتعارف عليه، حيث يتجلى السؤال في عملية معقدة تهدم وتبني، تهدم قديما وتأخذ منه ممكنات الاستمرارية فيه، لتبني جديدا متصلا بالقديم في نواح، منقطعا عنه في نواح أخرى.

ولتوضيح هذا السؤال، نلجأ الى التمثيل، فماذا يحدث اذا ما وقع نص أدبي حديث، بين يدي قارىء، تشكلت خبرته في التواصل مع النص الادبي، وفق ذهنية قديمة وأدوات قديمة، ولم يستمر في تعميق خبرته من خلال التواصل المستمر مع الجديد، ولم تتراكم لديه خبرة التذوق، ومقاربة النص التي تحتاج الى مواكبة حركية التطور الابداعي.

فهذه مسألة نصطدم بها باستمرار، فالنغمة السائدة تتمثل في أن الأدب الحديث أدب غامض، مبهم، مثقل بالرموز، غير قابل (للفهم)، عصي على الادراك، وكأن القارىء قد استوعب القديم واستجاب له، ولم يجد مشكلة في مقاربته، غير أن للمسألة بعدا آخر اذا ما نظرنا اليه نكتشف مشروعية هذا الموقف المعارض ونعكس مبرراته، التي نراها اذا ما نظرنا الى حالة القارىء في بلادنا، فلو نظرنا الى خبرته في التذوق الادبي، لاكتشفنا أن لهذه النائفة عناصر عديدة ساهمت في تشكلها على هذا النحو:

الاول: له علاقة بالمدرسة من زاويتين، الاولى: فيما يخص الاختيارات الادبية المدرجة في المقررات المدرسية، التي لا تعكس اختيارا جماليا، وموضوعيا مميزا، بل تعكس اختيارات زمرة من الموظفين، الذين درسوا الادب بطرائق تقليدية، وتجاوزهم الزمن فلم يستطيعوا أن يسايروا الرؤى الحديثة للادب والثانية فيما يتصل بأساليب تدريس ومقاربة هذه النصوص المقررة التي يقوم عليها - في الغالب - أساتذة يتعاملون معها بطرائق نمطية، وآلية جاهزة، تقصر نفسها على كل النصوص على اختلافها وتنوعها، او تجدهم غير قادرين على استبطان جماليات النص، فيسهون في تخريبه، وتخريب ناتئة الطلاب وتشويهها، مما يفضي الى قارىء لا يستجيب للنص استجابة، منفتحة، متعمقة، متلمسة للجمالي فيه.

الثاني: يرتبط العنصر الثاني بما نسميه الانقطاع، حيث أنها كثيرة جدا الحالات التي نراها رافضة للنص الحديث، وقد انقطعت طويلا عن التواصل مع النصوص الادبية، مما يخلق اختلالا عميقا يباعد بين الاثر الادبي ومتلقيه، بحكم تقزم خبرة القراءة التي توقفت عند زمن بعيد.

الثالث: رواج الهابط من الادب، وندرة المتميز، فلو نظرنا الى انتاجنا الادبي في الارض المحتلة لوجدنا نسبة كبيرة منه، وقد عانت من قصورها في تحقيق الشروط الاساسية للكتابة، وهي امتلاك ادوات الكتابة الابداعية، وقد افضى هذا الامر الى امرين متناقضين، فمن جانب رفض ادبنا على وجه الاطلاق او تم قبوله في غياب الوعي والخبرة فأصبح نموذجا يقاس عليه مما اسهم في ترسيخ التشويه.

الرابع: ان المتطلع الى وسائل الاعلام عموما لامكنه ان يرى بسهولة عقم اختياراتها الادبية على قلتها.

الخامس: مساهمة "السياسي" بمعناه الفئوي في التخريب الثقافي من خلال فرض "الادباء" فرضا على الحركة الثقافية بتنسيهم في اتحاد الكتاب، وبنشر انتاجاتهم العرجاء وبوضعهم في مواقع ثقافية مؤثرة، ويحدث ذلك نتيجة لرؤية "سياسية" هي الحكم الاول والنهائي، بحيث تغيب الرؤية الادبية تماما!!!.

وبطبيعة الحال فان اشكالية العلاقة بين النص والمتلقي، ليست قائمة نتيجة هذه الاسباب فقط، بل هناك العديد من الاسباب الاخرى التي تتعلق بالقارىء مباشرة، وهي تتصل بنوعية خبرته، وعلاقاته الانسانية، ورؤاه الكونية، والظروف الاجتماعية - الاقتصادية التي يعيشها...

كما أن لهذه الاشكالية سببا يغفل عنه الكثيرون، حينما يتعاملون مع النص على انه نص مغلق، يجب أن يقول قولة واحدة، غالبا ما يتم بحثها خارج النص، وبالبحث عما أراده الكاتب أو لم يرده، دون أن تتم مقاربة النص في كونه منفتحا على دلالات متنوعة، وقراءات مختلفة، تتنوع وتختلف باختلاف الخبرات والتصورات.

Digitized by Birzeit University Library

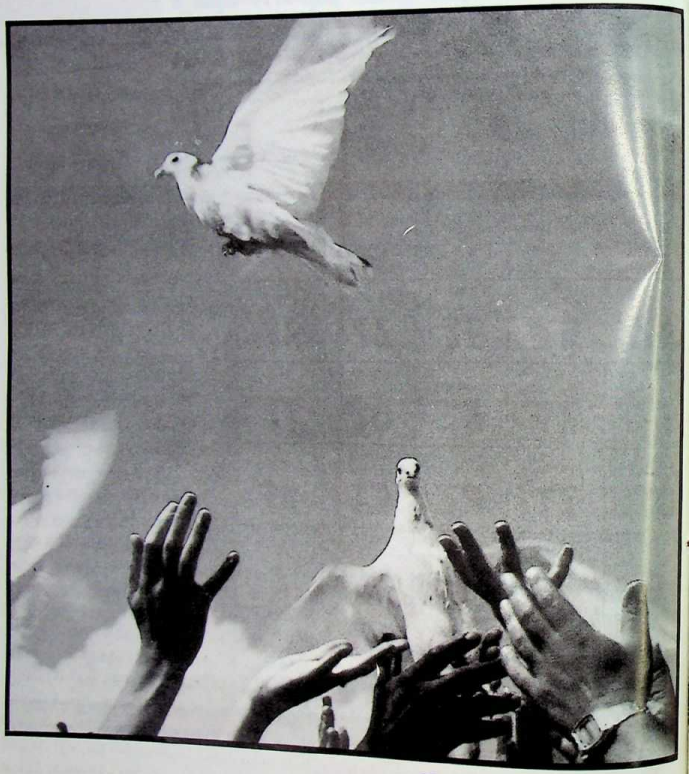

Digitized by Birzeit University Library

لا عليك .... ايها الكبش العاري!!

المتوكل طه

لماذا تدق جرس الصلاة - أيها الكبش العاري - في صحراء الماء؟ ولماذا تنفي منطق اللامنطق وانت تحيي عبثية السؤال؟ وكيف تداوي جرحك الاخضر المخبأ في عينيك الواضحتين؟ وهل تستطيع ان تترك عشب الكلمات لبساطير البروتوكولات والمكوكيات والاقنعة؟ لا عليك ... لا عليك.

أن رقصات الانفجار العبقري وخربشات الصغار اكثر واقعية وامكانية من حمائم بيكاسو، ذلك لأن الزمن القارس ومهابة امريكا الصفراء جعلت اصابع الرسام تحرق الريش الحرام في ليل الدم الخشن، وان ألعاب الطفولة في الحارات اكثر جدية من حرب النجوم المتنبية بدخول البيرسترويكا، ومن تكتيكات غرف التفكير التمعي واللوجستيكي والسياسي المهين!! وان شهقة حبات التين في افواه الحليب تقنع اكثر من رنات الاغاني التي كانت. فلماذا قد يذابحك مطر الابناء ورفض ابناء المخيم ... ايها المصطاف في حُمّى المسؤولية المُتعبة؟.

لعلني - أيها الكبش العظيم - ألوك حروف البوادي لأهرب من سؤال ابنتي القادم، ولهذا احاول ان أستر وجهي برغوة الكلمات، والردّ المفتوح على الاسئلة الصعبة المشروعة، التي تناسانا علماء النفس الاجتماعي، ومسؤولو الصناديق المتوهجة، والمثقفون العرب الذين لاقوا الرواء (!!!) في منافيهم الاختيارية خلف البحار والبارات، وكتبوا عن مذبحة لم تذبحهم، وأساءوا قصد الانبياء. فأسئلة الصغار هي سيوف المعتزلة والكملة، وأساس مفاهيم المناطقة المتعمقين في الغموض والآبار المهجورة. ولكن رداءة الزمن العربي الأنية قلبت عواميد الفكر والثقافة والتراث ... فكبرنا وفينا رهبة السؤال ونضيجة الجواب، ورفعنا عقيدة الزعيق والدفاع الخجّ والتحرير، ومقولات الدين غير القويم أو مقولات علماء لم نقرأهم ... فأصبحنا بلا حدود او هدوء او بلاد.

ولعلي - مرة اخرى - أهرب من سؤال الطفل في روحي، او لعلي وصلت الى قناعة أكيدة بأن «كولاج» الحياة ليست الا ترتيبا طبيعيا للأمور، وان التشظي والفيضاء والمحاور هي الصيغة الأكمل والاجمل للقوافل ... لكني - رغم هذا - لم اختر درب رامبو الصامت العابث، ومازلت متصالحا مع الضوء والأمل يا «كافكا»، ومازال خطابي يضخ بضرورة التأطير الشامل المتكامل الاستراتيجي ... وسأظل أقلّب القواميس حتى احفر قبري او أبني قصري او أبحث عن كنز لن اجده.

وهل هذه هلامية رخوة او يوتوبيا مستحيلة؟ اجبني أيها الكبير كدمعة الرجال، حتى لا تراك الاجيال صغيرا كثابوت طفل، هل نصفق متفرقين في فضاء الغموض الكامل او الوضوح الكاسح؟ ام أن تعب المراحل قد ارمق القلب وجعل الأمور تتداخل وتنصهر في بوتقة الرماد؟ وما أهمية هذا السؤال او كل الأسئلة؟ ما دام الربع الخالي خاليا إلاّ من الرمل والضباع؟ لا بأس فمدينة نينوى قابلة للتجديد ولاستيعاب أعراس الجليل! وما قيمة اللغة اذا لم تضمن له المتصلة او الزلزلة او النسيان المُطلق للشهوات؟ وماذا تنفع الغابات والأنهار إذا لم تطلق أعنتها للغزالة لتشهد الرفيف الاخضر ساعة الضحى؟؟.

وهل تخاف او أخاف من المؤتمر القادم؟! لا عليك. ولا عليّ. ولا على الآباء الآخرين. فكلنا يتسلّى في حلمه او صحوته بطريقته الخاصة، وقد ندرك الرعب الكامن في حفنة من تراب او ثقل صلصال الحنين في الضلوع. وكلنا يحاول ترتيب الدوائر من حوله بطريقة تضمن له الضوء والخبز. ولكن عزائي ان الدوائر من ماء، وأن حجرا صغيرا تلقيه طفلة ذات ضفائر مجنونة، يستطيع ان يخرق بحر الدوائر في الأرض والرأس وما بينهما ... فلا عليك ... لا عليك.

Digitized by Birzeit University Library